السرقة العجيبة

مغامرات أرسين لوبين

السرقة العجيبة

الكاتب الفرنسي المعروف

موريس لبلان

ترجمة

يوسف أبو الحجاج

السرقة العجيبة

وثب بيشو في سيارة الأجرة واندفع إلى مكتب بارنيت كالعاصفة، ورحب بارنيت به قائلا :

ـــ أه هذا جميل منك، فقد افترقنا في ذلك اليوم بكل برود، وخشيت أن تكون غاضبا فما الأمر؟.. هل أنت بحاجة الى؟

– نعم يا بارنيت.

هز بارنيت يديه وقال: هذا حسن، ولكن ما الأمر؟ إن وجهك شديد الاحمرار، فهل أنت مصاب بالحصبه.

– لا تسخر يا بارنيت فالموقف عسير وأريد أن أخرج منه مرفوع الرأس.

– ما الخبر إذن؟

– إن الأمر يتعلق بزوجتي.

– زوجتك؟ هل أنت متزوج؟

- بل مطلق.. منذ ست سنوات.
- لتنافر الطباع؟
- كلا وإنما لأنها تنصاع لرغباتها.
- ومن بينها الانفصال عنك.
- أرادت أن تشتغل بالمسرح، هل تفهم الآن؟ زوجة مفتش بوليس
- وهل أصابت نجاحا؟
- نعم فهي تغنى.

في الأوبرا؟

- بل في مسرح الفولى برجير.
- وما اسمها؟
- أولجا فوبان.
- تلك المغنية التي تقوم بالألعاب البهلوانية؟
- نعم.

عبر جيم بارنيت عن حماسه قائلا:

- على كل تهانئي يا بيشو فإن أولجا فنانة موهوبة وأغنيتها الأخيرة «يزيدور بيحبنى ولكننى أحب جيم» تدل على فن كبير.

قال بيشو: أشكرك، لقد جاءتنى هذه البرقية منها وهي مؤرخة بتاريخ صباح الأمس.

وقرأ: سرقوا غرفة نومي، وكادوا يقتلون أبى فتعال: أولجا.

قال بارنيت: إن الكلمة «كادوا» هذه تدل على عبقرية!

عاد بيشو يقول وقد اتصلت تلفونيا بإدارة الأمن، وهم على علم بما حدث، وحصلت على الإذن بالانضمام إلى زملائي الذين يقومون بتحقيق الحادث.

سأله بارنيت: وماذا تخشى؟...

أجاب بيشو في لهجة يرثى لها: أخشى أن أراها ثانية!

– أما زلت تحبها؟

– عندما أراها تسرى الرعشة في قلبي من جديد ويجف حلقي وأتلعثم. فهل تتصور تحقيقا في هذه الظروف؟ لن أقدم إلا على حماقات.

– في حين أنك تريد أن تكون على العكس وقورا أمامها وأن تكون فوق ذلك على مستوى سمعتك؟

– تماما.

– صفوة القول إنك تعتمد على؟

– نعم يا بارنيت.

– وما هو سلوك زوجتك؟

– لا غبار عليه، لولا تلك النزعة التي تمتلكها لبقيت مدام بيشو حتى اليوم.

قال بارنيت في لهجة الجد وهو يأخذ قبعته:

– وبذلك يخسر الفن خسارة كبيرة.

وبعد بضع لحظات بلغا شارعا من أهدأ الشوارع وأقلها ازدحاما بالقرب من حديقة لكسمبورج وكانت أولجا فوبان تقيم في الطابق الثالث والأخير من بيت جميل، نوافذ طابقه الأرضي مرتفعة ومزودة بقضبان حديدية وقال بيشو:

– كلمة أخرى، وهي أن تكف هذه المرة عن مزاعمك وادعاءاتك التي تعيب تعاوننا.

قال بارنيت: إن ضميري..

قاطعه بيشو قائلا: دع ضميرك في هدوء، وفكر في ضميري أنا وفي اللوم والتوبيخ اللذين ألاقيهما منه.

– هل تظنني جديرا بأن أسلب من أولجا فوبان شيئا ما.

- إنني أطلب منك أن لا تسلب شيئاً من أحد.
- حتى أولئك الذين يستحقون ذلك؟
- دع العدالة تتولى عقابهم.

* * *

تنهد بارنيت وقال: هذا أمر غريب حقا ولكن ما دمت تريد ذلك.

كان أحد رجال الشرطة يحرس الباب وآخر يلازم البواب وزوجته في غرفتها، وقد هزهما الحادث كثيرا وعلم بيشو أن مأمور الحي وشرطيين قد خرجوا من البيت وأن قاضي التحقيق قد انتهى من تحقيق مبدئي.. وقال يخاطب بارنيت.

- يمكننا أن تنتهز الفرصة الآن حيث لا يوجد أحد

واستطرد يقول وهما يصعدان:

- هذا بيت قديم لا يزالون يحتفظون فيه بتقاليد الماضي فالباب، يبقى مثلا مغلق دائما ولا يمكن لأحد أن يدخله إلا بعد أن يقرعه يقيم في الطابق الأول قسيس، وفي الطابق الثاني قاضي وتقوم زوجة البواب بخدمتهما أما أولجا فتقطن في الطابق الثالث وتعيش حياة محترمة بين أمها وخادمتها المتقدمتين في السن واللتين أشرفتا على تربيتها.

فتح الباب لهما وقال بيشو: تقع غرفة أولجا ومخدعها على يمين الرواق وعلى اليسار غرفتي الأم والخادمتين، وأمام الرواق ستوديو للرسم تحول إلى قاعة للرياضة بها عمود مثبت وأرجوحة وحلقات وأدوات كثيرة متفرقة بين المقاعد والأرايك.

وما أن دخلا تلك القاعة حتى هبط شيء من الفتحة الزجاجية التي يدخل منها نور النهار وكان ذلك الشيء شابا وسيما يغطي رأسه شعر أشقر أشعث وتحت بيجامته المشدوده حول جسدة عرف بارنيت أولجا فوبان وصاحت على الفور بلهجة ريفية:

– أمي تتمتع بصحة جيدة كما تعلم يا بيشو وهي نائمة الآن إن أمي العزيزة لمحظوظة حقا.

وقامت بحركة رياضية فارتكزت برأسها فوق الأرض، ورفعت قدميها في الفضاء وراحت تغنى بصوت رنان، مثير ومجوح: «إن يزيدور يحبني ولكنني أحب جيم».

وقالت وهي تنهض وأحبك أنت أيضا يا عزيزي بيشو، نعم، جميل منك أن أتيت بهذه السرعة.

وكذ بيشو زميله قائلا.

– صديقي جيم بارنيت

وكان يحاول أن يتمالك نفسه ولكن عينيه الزائغتين وحركاته العصبية كانت تنم عن اضطرابه وبلبلته وقالت:

– حسنا سوف تكشفان معا غموض هذه المسألة وتعيدان إلى غرفة نومي فهذا من اختصاصكما آه وأقدم لكما بدوري دل بريجو أستاذ الرياضة والتدليك وفنون المكياج وهو في نفس الوقت تاجر منتجات التجميل الذي يحظى بشهرة كبيرة في عالم المسرح والذي لا مثيل له في إعادة الشباب وتعليم الحركات البهلوانية.. دل بريمو.

انحنى دل بريمو كان عريض الكتفين، نحاسي البشرة له وجه بشوش لمهرج عجوز ويرتدي ثيابا سمراء وزوجان من القفازات البيضاء اللون وقماطا أبيض ويمسك في يديه قبعة من اللباد ذات لون فاتح، وراح يلوح على الفور ويلثغ بالراء ويمزح باللغة الفرنسية التي يتكلمها بلكنة أجنبية بكلمات أسبانية وإنجليزية وروسية، وأراد أن يعرض طريقته في تعليم الحركات الرياضية البهلوانية ولكن أولجا قاطعته قائله:

– لا يجب أن نضيع الوقت ما هي المعلومات التي تريدها يا بيشو؟

قال بيشو: دعينا، قبل كل شيء نرى غرفتك.

– حسنا. هلموا بنا إليها.

ووثبت مرة واحدة وتعلقت بالأرجوحة ودفعتها هذه إلى الحلقتين وأسرعت بالهبوط منها أمام باب وقال: ها نحن بها.

كانت الغرفة عارية تماما لا فراش ولا مفروشات ولا ستائر ولا لوحات ولا مرايا ولا سجاد ولا تحف.. ولم يعد فيها شيء على الإطلاق غرفة عارية أفرغها اللصوص من كل شيء.

وراحت تقهقه ثم قالت: ما رأيكما؟ إنهم أخلوها من كل ما كان فيها، بل إنهم أخذوا أدوات التجميل وفرشاة الشعر، ويخيل إلى أنهم أخذوا منها كل ما كان فيها غيار... كنت أعتز جدا بغرفتي.. فهي من طراز لويس الخامس عشر.. اشتريت مفروشاتها قطعة قطعة.. الفراش سبق أن رقدت فيه مدام بومبادور وأربع لوحات لبوشين وطاولة تاريخية... وروائع.. ابتعتها كلها بنقودي التي ربحتها في جولتي بأمريكا.

وقامت بحركة بهلوانية عنيفة شديدة الخطر ثم هزت شعرها وصاحت في مرح:

– ولكن لا بأس سأتباع غيرها، فأنا بفضل عضلاتي المرنة وصوتي المبحوح ولا أعاني من أية ضائقة ولكن ماذا بك لكي تنظر إلى هكذا بابيشو؟ يخيل إلى دائما أنك ستقع عند قدمي مغمى عليك

تعالى لكي أقبلك ثم ألقى على ما تشاء من أسئلة، ولنفرغ من الأمر قبل قدوم رجال النيابة.

قال بيشو: اذكرى لنا ما حدث.

قالت: ليس هناك الكثير، إليك ما حدث في منتصف الساعة العاشرة مساء أمس.. ويجب أن أقول لك إنني قد خرجت من الساعة الثامنة مع دل بريجو فقد رافقني إلى الفولى برجير بدلا من أمي لأنها كانت مشغولة في غزل الصوف دقت الساعة معلنة النصف بعد التاسعة عندما صدرت حركة في غرفتي فأسرعت أمي إليها وعلى ضوء مصباح كهربي انطفأ على الفور رأت رجلاً يفك الفراش وآخر انقض فوق رأسها وألقاها أرضا في حين أحاط الأول رأسها بمفرش ثم قام بنقل كل ما في الغرفة ولم تتحرك أمي ولم تصرخ حتى سمعت سيارة كبيرة تنطلق في الشارع ثم أغمى عليها قال بيشو: بحيث إنك عندما عدت من الفولى برجير...

– وجدت الباب العمومي للبيت مفتوحا، وباب مسكني مفتوحا هو الآخر وأمي مغمى عليها ولا تسل عن دهشتي عندئذ

– والبواب وزوجته؟

– أنت تعرفهما، إنهما متقدمان في السن ويقيمان هنا منذ ثلاثين

سنة ولا يزعجهما أي زلزال لا يوقظهما شيء غير جرس الباب، وهما يقسمان أن ما من أحد طرق الباب منذ أن أويا إلى فراشهما في الساعة العاشرة مساء حتى الثامنة صباحا.

قال بيشو ونتيجة لذلك لم يرفعا السقاطة التي تفتح الباب

- هو ذلك.

- والسكان الآخرون؟

- لم يسمعوا شيئا هم أيضا.

وإذن؟

- وإذن ماذا؟

- أعنى ما رأيك في ذلك يا أولجا.

احتدت المرأة الشابة قائلة:

- إن أمرك عجيب.. وهل من شأني أن يكون لي رأي؟ إنك لتبدو حقا غبيا كرجل النيابة.

وقال في ارتباك: ولكننا لم نبدأ بعد

- ألا يكفيك كل ما ذكرت لك كي تجلو الأمر إذا كان المدعو بارنيت غبيا مثلك فلا أمل في عودة فراشي الذي رقدت عليه مدام

دى بومبادور.

تقدم المدعو بارنيت وسألها:

– في أي يوم تريدين عودة فراش مدام بومبادور؟

قالت ماذا تقول؟

ونظرت في دهشة إلى الرجل المضحك ولم تكن قد أعارته أي اهتمام ولكنه عاد يقول في غير كلفة: أريد أن أعرف اليوم والساعة التي تريدين فيها عودة فراشك وكل مفروشات غرفتك.

– ولكن..

– فلنحدد التاريخ.. اليوم يوم الثلاثاء هل يوافقك يوم الثلاثاء القادم نظرت إليه بعينين مستديرتين متسعتين وبدت كأنها تختنق ما معنى هذا الاقتراح الغريب أتراه يمزح أم يتبجح وفجأة انفجرت ضاحكة وقالت: هذا رجل مضحك حقا من أين أتيت بصديقك هذا يا بيشو؟ أسبوع! لكأن فراشي في جيبه وهل تظن أنني سأضيع وقتي مع رجلين غبيين مثلكما

ودفعتهما حتى الرواق وهي تقول:

هيا أغربا عن وجهي لا أريد أن أراكما بعد اليوم فلا أحب أن يهزأ

بي أحد إنكما لمازحين غريبين!

وأغلقت باب الأستوديو في عنف، وغمغم بيشو بأسى:

– ولكن لم تمر بنا هنا أكثر من عشر دقائق.

فحص بارنيت الرواق في اهتمام كبير وهو يلقى بعض الأسئلة على إحدى الخادمتين المتقدمتين في السن وعندما هبطا السلم دخلا غرفة البواب وزوجته واستجوبهما هما الآخرين وعندما خرج وثب إلى سيارة أجرة كانت تمر بهما وذكر عنوان مكتبه للسائق في حين وقف بيشو على الرصيف مذهولاً.

وإذا كان لبارنيت أي تأثير على بيشو فقد كان تأثير أولجا عليه أكثر بكثير ورأى من تلك المقابلة أن بارنيت لم يتخلص من الارتباك إلا بوعد لا يمكن إلا أن يكون نوعا من التهريج.

وتأكد بيشو من ذلك في اليوم التالي عندما مضى إلى مكتب بارنيت ووجده جالسا يدخن وقدماه فوق مكتبه وصاح به محنقا:

– إذا كنت تهتم بالأمر هكذا فسوف نتخبط تماما ورغم أنني بذلت كل جهد فإن رجال النيابة لا يفهمون شيئا ولا أنا على كل حال إننا متفقون طبعا في بعض النواحي ومثال ذلك أنه من المستحيل دخول البيت ولو عن طريق مفتاح مصطنع إذا لم يفتح أحد الباب من الداخل

وحيث إنه لا يوجد من يمكن الاشتباه فيه في الداخل باشتراكه في الأمر فقد انتهينا إلى هذين الاستنتاجين الحتميين وأولهما أن أحد اللصوص كان بالداخل في نهار اليوم السابق، وأنه فتح الباب لشريكة وثانيهما أنه لم يستطع الدخول دون أن يراه البواب وزوجته حيث إن باب البيت مغلقا دائما ولكن من الذي دخل؟ ومن الذي ساعده على الدخول؟ سر مستغلق وإذن...

ولكن بارنيت لم يخرج عن صمته بدأ غريبا تماما عن تلك المسألة.

واستطرد بيشو

– وقد وضعوا قائمة بالأشخاص الذين دخلوا بالأمس وأكد البواب وزوجته أن كل شخص دخل ذلك اليوم خرج ثانياً وإذن فليس هناك أي أثر والسرقة التي تمت بوسائل بسيطة وبجرأة كبيرة لا تزال سرا مستغلقا فما رأيك في كل ذلك.

تمطى بارنيت وبدا أنه يعود إلى عالم الواقع وقال: إنها جميلة..

– من؟ ماذا؟ من هي الجميلة؟

– زوجتك.

– ايه؟

– جميلة في الحياة وعلى المسرح؟.. نشاط وحيوية.. حيوية مفرطة! فتاة باريسية حقا وهي فوق ذلك رشيقة وفاتنة.. وفكرة إنفاقها مدخراتها لشراء فراش بومبادور فكرة ظريفة أنت غير محظوظ حقا يا بيشو.

غمغم هذا الأخير، هو ذلك وقد تخلى عنى الحظ منذ وقت طويل.

– وكم استمر هذا الحظ.

– شهر واحد

– وأنت تشكو وتتذمر؟

وعاد بيشو يوم السبت إلى المكتب ووجد بارنيت يدخن ويفكر، ولم يرد عليه وظهر بيشو أخيرا يوم الاثنين وقد ثبطت همته، وقال مزمجرا:

– ليس هناك أي أمل أن كل هؤلاء الناس هناك أغبياء وفي أثناء ذلك لابد أن فراش مدام دى بومبادور وغرفة أولجا تهرب إلى مكان لترسل منه إلى الخارج وتباع ذات يوم وماذا أبدو أنا في عينى أولجا.. غبي!

ونظر إلى بارنيت وكان هذا الأخير يتابع بعينيه حلقات الدخان المتصاعد من سيجارته حتى سقف الغرفة فاحتد قائلاً:

– هكذا.. نحن ننازل خصوما أشداء لم نلتق بمثلهم قبل اليوم.. أناس يتصرفون بطريقة خاصة، خدعة دقيقة بحيث لا يتركون وراءهم

أي أثر والظاهر الذي لا شك فيه أنهم أدخلوا شريكا في البيت وأنت لا تحاول حتى اكتشاف هذه الخدعة.

قال بارنيت: إن فيها شيئا يروقني أكثر من أي شيء آخر.

قال بيشو: ماذا؟

– طبيعتها وتلقائيتها لا تصنع فيها ولا رياء إن أولجا تنطق بما يخطر على بالها وتتصرف طبقا لغريزتها وتعيش كما يحلو لها وأعود فأكرر لك يا بيشو إنها امرأة حلوة.

هوى بيشو بقبضته على المكتب بقوة وقال:

– هل تعرف رأيها فيك؟ غبي وعندما تتكلم عنك مع دل بريجو يضحكان بملء فيهما.. بارنيت المغفل.. بارنيت المتفاخر!

تنهد بارنيت وقال: هذه صفة بغيضة ما العمل كي لا أستحقها؟

– إن غدا يوم الثلاثاء يجب أن نعيد إليها فراش مدام بومبادور كما وعدتها.

– سحقا ولكنني لا أعرف أين يوجد أما تنصحني بشيء يا بيشو.

– أنصحك بأن نقبض على اللصوص ستعرف الحقيقة منهم.

قال بارنيت. ليس هذا بالعمل الهين يا بيشو هل معك أمر بالقبض

- نعم

- وهل لديك رجال تحت تصرفك؟

- ما على إلا أن أتصل بإدارة الأمن بالتليفون.

- اتصل الآن واطلب أن يبعثوا إليك برجلين قويين بجوار اللوكسمبورج على مقربة من الأوديون.

أجفل بيشو وقال: هل تسخر منى؟

- أبدا ولكن هل تظن أنني أريد أن يخطر لأولجا أننى مغفل.. ثم أليس من عادتي الوفاء بوعودي دائما.

فكر بيشو بضع دقائق أحس فجأة بأن بارنيت يجد في قوله وأنه لم يكف عن التفكير في اللغز طوال الأيام الستة وهو جالس.

في مقعده ألم يسبق أن قال مرارا أن هناك حالات من الأوفق قتلها تفكيرا وتمحيصا بدلا من إضاعة الوقت في تحقيق لا طائل منه.

ومن غير أن يطيل التفكير اتصل بصديق له يدعى ألبير في إدارة الأمن وهو في نفس الوقت المساعد الأمين لرئيس الأمن وتم الاتفاق على إرسال رجلين بجوار مسرح الأوديون

ونهض بارنتي متأهبا للخروج وكانت الساعة قد بلغت الثالثة.

وخرج وسأله بيشو: هل نذهب إلى الحي الذي تقيم فيه أولجا.

– بل إلى بيتها بالذات

– ولكننا لن نمضى إلى مسكنها؟

– بل إلى غرفة البواب وزوجته.

والواقع أنهما جلسا في غرفة البواب بعد أن أوصى بارنت البواب وزوجته أن لا ينطقا بكلمة واحدة وأن لا يفعلا ما ينم على وجود بيشو فى الغرفة جلسا خلف ستار وكان في مقدور كل منهما أن يرى كل من يدخل وكل من يخرج.

خرج القسيس الذي يقطن بالطابق الأول ثم خرجت إحدى خادمتى أولجا وفي يدها سلة لابتياع بعض لوازم البيت وتمتم بيشو:

– من الذي تنتظره بحق الشيطان؟.. وما هو هدفك؟

– هدفي أن أعلمك مهنتك.

– ولكن؟

– اسكت..

ودخل دل بريجو في الساعة الثالثة والنصف وهو يرتدى قفازه الأبيض هو الأخر وبدلة سمراء فاتحة اللون وأشار إلى البواب وزوجته

محييا كانت ساعة بدء الدروس الرياضية اليومية.

وبعد أربعين دقيقة خرج من جديد ومعه علبه من السجائر ابتاعها.. قفاز أبيض وطماق أبيض.

ثم دخل ثلاثة أشخاص آخرون وهمس بيشو فجأة:

أه ها هو يعود ثانية للمرة الثالثة فمن أين خرج.

أظنه خرج من الباب.

قال بيشو في شيء من التردد: لا أظن. إلا إذا كنا لم نرقب الباب جيدا ما رأيك يا بارنيت؟

أبعد بارنيت الستار وقال أرى أن وقت العمل قد حان...

امض وابحث عن رجلين يا بيشو.

هل آتى بهما هنا؟

نعم

وأنت؟

سأصعد

هل تنتظرنى؟

- لماذا؟

- ولكن ماذا هناك؟

- سوف ترى رابطو ثلاثتكم في الطابق الثاني وسوف أدعوكم.

- سوف تبدأ العمل إذن؟

- حتى النهاية.

- ضد من؟

- ضد رجال لا تنقصهم الجرأة.. أسرع بيشو بالخروج وصعد بارنيت الطوابق الثلاثة كما قال وطرق الباب ودخل إلى غرفة الرياضة حيث كانت أولجا تنتهي من دروسها تحت مراقبه دل بريجو وصاحت وهي فوق سلم من الحبال: آه من أرى.. مسيو بارنيت العنيد حسنا يا مسيو بارنيت هل تأتيني بقراشى؟

- تقريبا يا سيدتي، ولكن أرجو أن لا يزعجك حضوري.

- بل على العكس.

وبخفة عجيبة ودون أن تحفل بالخطر قامت ببضع حركات صعبة تلبية لإرشادات دل بريجو وكان هذا الأخير يشجعها وينتقدها ويعطيها المثل أحيانا فقد كان هو نفسه رياضيا قديما وإن كان أكثر عنفا وكان يبدو أنه يريد أن يظهر براعته.

وإذا انتهى الدرس لبس سترته وزرر طماقه الأبيض وأخذ قفازه الأبيض وقبعته الفاتحة اللون وقال:

– سوف نلتقي هذا المساء في المسرح يا مدام أولجا.

ألن تنتظرني اليوم إذن يادل بريجو؟ كان يجب أن ترافقني لأن أمي غير موجودة.

– لا يمكننى ذلك فلدي دروس قبل العشاء.

ومضى نحو الباب ولكنه اضطر أن يتوقف، فقد كان بارنيت بين الباب وبينه وقال بارنيت:

– اسمح لي ببضع كلمات فحسب أيها السيد العزيز مادام الحظ قد أسعدني بلقائك.

– أنا آسف حقا، فإننى...

– هل يجب أن أقدم نفسي ثانية أنا جيم بارنيت مخبر خاص بمكتب بارنيت وشركاه وصديق لبيشو.

تقدم دل بريمو خطوة إلى الأمام وهو يقول:

– أرجو المعذرة أيها السيد فإنني على عجل من أمري.

– أوه. دقيقة واحدة لا أكثر ريثما تستعيد ذكرياتك.

- بخصوص من؟
- بخصوص رجل تركي.
- تركي؟
- نعم ويدعي بن فالى.

هز الأستاذ رأسه وقال: بن فالى؟ لم أسمع عن هذا الاسم أبدا.

- ربما سمعت عن رجل يدعي أفيروف؟
- لم أسمع عنه هو الآخر.. من هذان السيدان.
- قاتلان.

ساد صمت قصير ثم ضحك دل بريجو وقال: - هذا نوع من الرجال لا أحب الاختلاط به.

قال بارنيت: بل يزعم بعضهم أنك تعرفهما حق المعرفة

نظر دل بريجو إليه من قمة رأسه إلى أخمص قدمه وغمغم:

- ما معنى كل هذا؟ وضح ما تقول فإن الألغاز لا تروق لي.
- اجلس يا مسيو دل بريجو.. سوف نتكلم بحرية أكثر.

أتى دل بريجو بحركة تدل على نفاد صبره وكانت أولجا قد اقتربت من الرجلين.. جميلة وفضولية جدا في ثوبها الرياضي وقالت: اجلس يا

دل بريجو ولا تنس أن الأمر يتعلق بفراش مدام دى بومبادور.

قال بارنيت صدقنى يا مسيو دل بريجو إننى لا أقدم لك أي لغز ولكن منذ زيارتي الأولى هنا بعد السرقة لم أكف عن تذكر حقيقتين مختلفين كثر الحديث عنهما في حينهما وأحب أن أعرف رأيك فيهما وتكفيننى بضع دقائق.

ولم يعد بارنيت يتكلم بطريقته العادية كتابع لبيشو وإنما اتخذت لهجته سمة آمرة بحيث لا يمكن إلا الخضوع لها ودهشت أولجا كل الدهشة. واضطر دل بريجو أن يذعن وقال مزمجرا:

– أسرع إذن: وبدأ بارنيت حديثه فقال:

– منذ ثلاث سنوات ارتبط جوهرى يقيم في مسكنه مع أبيه في الطابق العلوي بمبنى في قلب باريس، بعلاقة عمل مع رجل يدعى بن فالى، يرتدى عمامة وزيا تركيا بسروال فضفاض ويتاجر في الأحجار الكريمة من الدرجة الثانية.. ياقوت أصفر شرقى ولؤلؤ غير متناسق وأحجار نفيسه وغيرها ومساء يوم صعد بن فالى مرارا إلى سكن الجوهرى وعاد هذا الأخير إلى المسرح ووجد أباه قتيلا بطعنة خنجر وخزانات المجواهرات فارغة تماما وأسفر التحقيق عن أن الجريمة لم يرتكبها بن فالي بنفسه لأنه أثبت أنه كان في مكان آخر وقت ارتكاب

الجريمة ولكن ارتكبها شخص آخر أدخله بن فالى البيت بعد الظهر وقد تعذر القبض على ذلك الرجل واختفى التركي بدوره وحفظت القضية

فهل تتذكر يا مسيو دل بريجو؟

قال دل بريجو لم آت إلى باريس إلا منذ سنتين ثم إنني لا أرى الصلة.

استطرد جيم بارنيت يقول: وكانت جريمة أخرى قد ارتكبت بنفس الأسلوب والقتيل من هواة الأوسمة ويدعى مسيو دافول، وأدخل القاتل رجل روسى يدعي الكونت أفيروف وأخفاه في المسكن.

قالت أولجا فوبان وقد امتقع وجهها جدا إننى أتذكر هذه الجريمة.

واستأنف بارنيت حديثة قائلا وعلى الفور لم أر في هاتين الجريميتن وسرقة فراش مدام بومبادور تماثلا عجيبا فحسب وإنما مشابهة شبه عائلية بالذات فإن سرقة مجوهرات مسيو سورو التي ارتكبها بن فالى وسرقة أوسمة مسيو دانوى تمتا بواسطة رجلين أجنبيين، بنفس الطريقة التي نجدها هنا أي بإدخال مسبق لشريك أو شريكين للقيام بالسرقة ولكن ما هي السمة المميزة لهذه الطريقة؟

هذا ما لم أره لأول وهلة وهذا ما أرهقت نفسي حتى التفكير فيه طوال أيام في مكتبي وبهذين العنصرين اللذين عرفتهما وهما جريمة بن فالى وجريمة أفيرون كان لابد من إثبات فكرة عامة قوامها طريقة

خاصة دبرت بها هاتان الجريمتان وربما جرائم أخرى لا أعرفها.

سألته أولجا في اهتمام: وهل أفلحت؟

أجاب بارنيت: نعم، وأعترف أنها فكرة جميلة فيها فن وأنا خبير في كل ما يمت بالفن.. فن كبير فبينما يتصرف رعاع اللصوص والقتلة سرا ويتسللون إلى الأماكن المراد سرقتها خفيه أو يرسلون مسبقا بعض السباكين أو العمال للتعرف على تلك الأماكن يعمد هؤلاء إلى طريقة أخرى ويعملون جهارا وهم رافعوا الرؤوس وكلما وقعت عليهم الأبصار كلما كان ذلك أفضل فهم يدخلون البيت علانية بعد أن يصبحوا من المألوفين والمترددين عليه ثم وفي اليوم المحدد يخرجون ثم يعودون من جديد وثم.. وعندما يصبح رئيس العصابة في الداخل فإن رجلا آخر يدخل.. رجل غير الذي رأوه يدخل ويخرج ولكن له نفس مظهره وهيئته بحيث يخطر لمن يراه أنه هو أليس هذا بديعا

خاطب بارنيت دل بريمو بهذه العبارة الأخيرة ثم استطرد.

هذه عبقرية.. نعم عبقرية يا دل بريجو أعود فأقول إن رجلا آخر يقوم بالعملية وهو يحاول أن لا يفطن إليه أحد كلص الفنادق، مرتديا نفس الزي المحايد وبنفس الطريقة التي تستلفت الأنظار، رغم حرصهم على أن يراهم الجميع فإذا دخل روسي يرتدي زيا معينا، وإذا

دخل تركي يرتدي هو الآخر زيا معينا فلن يخطر لأحد أنه دخلها أكثر مما خرج ولكن الشريك هو الذي يدخل في المرة الخامسة ولا يرقى الشك إلى أحد هذه الطريقة وإننى أحيى الذي ابتكرها ونفذها لأنها تدل على عبقرية وأستاذية، ولكن بالنسبه لي أنا فإن بن فالى والكونت أفيروف ما هما إلا شخص واحد أو ليس عندنا الحق عندئذ في أن تتساءل من الذي دخل ثالث مرة تحت مظهر ثالث في القضية التي تشغلنا روسي أولا ثم تركي ثانيا ثم من الذي نراه هنا في صورة أجنبي ويرتدي بتلك الصورة المميزة؟

وأمسك وارتسم السخط على أولجا فقد أدركت على الفور ما يعنيه بارنيت منذ أن بدأ حديثة واحتجت قائلة:

– كلا، كلا إن في حديثك هذا تلميحا لا يمكن إلا أن يثير حنقي.

ابتسم دل بريجو وقال متسامحا:

– دعيه يتكلم يا مدام أولجا.. إن مسيو بارنيت يحلو له أن يلهو.

قال بارنيت: هو ذلك يا دل بريمو إننى ألهو وأنت على حق تماما في أن تهتم بمغامرتي الأخيرة على الأقل قبل أن تعرف نهايتها طبعا أنا أعلم تماما أنك أجنبي وترتدي ثيابك بطريقة تلفت النظر قفازا أبيض وطماق أبيض ووجهك عبارة عن قناع متحرك يصلح لكل التغييرات

ويساعدك أكثر من أي شيء آخر على أن تتبدل إلى روسي أو تركي أو غني يعيش عيشة بذخ ولا يعرف له مورد رزق وأنت بالطبع من المترددين على البيت أيمكنك الدخول والخروج عدة مرات في اليوم ثم إن سمعتك كرجل شريف لا يمكن الطعن فيها وأولجا فوبان ضامنة لك ولهذا لا مجال أبدا لاتهامك ولكن ما العل؟ هل تفهم ارتباكي؟ كنت أنت المجرم الوحيد الممكن ولكن لا يمكن أن تكون الجاني أليس كذلك يا أولجا فوبان؟

قالت وعيناها تلمعان من الحمى والقلق:

– كلا كلا إذن من تتهم؟.. وأية طريقة تستخدم.

– طريقة بسيطة جدا.

– وما هي؟

– هي أنني نصبت فخا

– نصبت فخا.. وكيف ذلك؟

سألها جيم بارنيت ألم تتلقى مساء أمس مكالمة تليفونية من البارون لورنز؟

– نعم هذا صحيح

– وقد جاء لزيارتك أمس؟

– نعم، نعم...

– وجاءك بصندوق ثقيل من الفضة عليه شعار مدام بومبادور.

– ها هو، على هذه المنضدة.

– إن البارون لورينزو قد أفلس ويحاول أن يبيع هذا الصندوق الذي ورثه عن أجداده وتركه لديك حتى غدا الثلاثاء.

– وكيف عرفت ذلك؟

– البارون هو أنا وإذن فقد عرضت هذه التحفة من الفضيات على من حولك؟

– نعم

– ومن ناحية أخرى تلقت أمك برقية من الريف تدعوها للذهاب إلى أختها المريضة؟

– من أخبرك بذلك؟

– أنا الذي أرسلت البرقية رحلت أمك صباح اليوم إذن؟ وسيبقى صندوق الفضيات في هذه الغرفة حتى صباح الغد وهذا إغراء كبير لكي يقوم بالمحاولة ويسرق الصندوق وهي سرقة قيمتها أكثر بكثير من قيمة الغرفة ومحتوياتها.

استولى الخوف فجأة على أولجا وصاحت: وهل ستتم المحاولة هذه الليلة؟

– هذه الليلة كما هو مفروض.

قالت في صوت متهدج ولكن هذا فظيع

وكان دل بريجو قد أصغى دون أن يتحرك فنهض وقال:

– ليس في هذا أي شيء فظيع يا مدام أولجا قد عرفت يكفي أن تبلغي البوليس وإذا سمحت فإننى سأنصرف الآن.

صاح بارنيت كلا بالطبع فإننى بحاجة إليك يا دل بريجو.

– لا أرى فيم أستطيع أن أفيدك.

– كيف ذلك؟ ولكن في القبض على الشريك.

– أمامنا الوقت، ما دامت السرقة لن تقع إلا ليلاً.

– نعم ولكن لا تنس أن الشريك قد تم إدخاله مسبقا.

– أيكون قد دخل فعلا؟

– منذ نصف ساعة.

– هذا سخف. أتعنى منذ حضوري؟

– منذ قدومك للمرة الثانية.

– هذا أمر لا يصدق.

- رأيته يدخل كما رأيتك أنت.

- إذن مختبئ في هذا المسكن؟

- نعم.

- أين؟

مد بارنيت أصبعه نحو الباب وقال:

- هناك يوجد في الرواق دولاب مشحون بالثياب والملابس القديمة ولا يفتحه أحد بعد الظهر وهو مختبئ فيه.

ولكنه لم يستطع أن يختبئ فيه بمفرده؟

- كلا.

ومن الذي فتح له؟

- أنت يا دل بريجو.

كان من الواضح بالطبع منذ البداية أن كل كلمات بارنيت تشير إلى أستاذ الرياضة وأنها كلها إلماحات محددة بالذات ومع ذلك فإن مفاجأة الهجوم أفزعت دل بريجو وارتسمت على وجهه شتى المشاعر التي تتضارب فيه والتي استطاع إخفاءها حتى الآن وهي الغضب والقلق وخمن بارنيت تردده وأسرع إلى الرواق وأخرج من الدولاب رجلاً

دفعه إلى الأستوديو.

وصاحت أولجا!

– آه.. الأمر صحيح إذن.

كان الرجل له نفس قامة دل بريجو ومرتديا مثل ثيابه تماما ونفس الوجه السمين القابل للتغير وقال بارنيت وهو يضع على رأسه قبعة فاتحة اللون ويناوله قفازا أبيض:

– إنك نسيت قبعتك وقفازك أيها السيد:

دهشت أولجا وراحت تبتعد خطوة خطوة دون أن تفارق بعينيها الرجلين وصعدت درجات السلم متقهقرة أدركت فجأة حقيقة دل بريجو والأخطار التي تعرضت لها بجوارة وخاطبها بارنيت وهو يضحك:

– عجبا هذا غريب إنهما ليسا متشابهين كتوأمين.. ولكنهما متشابهان في القامة والهيئة ولكل منهما وجه بهلوان عجوز وزيهما متشابه هو الآخر إنهما يبدوان كأخوين تماما.

تغلب الشريكان على اضطرابهما شيئا فشيئا كانا قويين وأمامهما على كل حال غريم واحد يبدو ضعيفا وله مظهر موظف بسيط ونطق دل بريجو بعبارة أجنبية فقال بارنيت على الفور.

– لا داعي للتحدث باللغة الروسية لكي تسأل زميلك إن كان معه مسدس.

تميز دل بريجو من الغيظ وقال بضع كلمات بلغة أخرى فقال بارنيت: لاحظ فإننى أعرف التركية معرفة تامة ثم إننى أحب أن تعرف أن بيشو موجود في السلم وأنت تعرفه فهو زوج أولجا ومعه اثنان من رجاله وبمجرد سماعهم طلقة سيبادرون بالهجوم تبادل دل بريجو وزميله نظرة أحسا بأنهما هالكان ومع ذلك فقد كانا من النوع الذي لا يقر بالهزيمة فاقتربا من بارنيت وهما متأكدان من قوتهما ولكن بارنيت صاح بهما:

– حسنا معركة ضارية بالأيدى وما أن تتغلبا على حتى تحاولا الهرب من بيشو حذار يا مدام أولجا ستشهدين الآن شيئا عجبا عملاقان ينقضان على رجل نحيل هيا يا دل بريجو بأسرع من هذا.. هيا قليل من الشجاعة أمسك بتلا بيى.

كانت تفصل بينهم ثلاث خطوات وشدد الشقيان الضغط على أصابعهما وما هي إلا لحظة حتى انقضا. ولكن بارنيت كان أسبق فقد خفض رأسه نحو الأرض وأمسك بساقي كل مهما وأقعهما أرضا كما لو كانا تمثالين وقبل أن يتمكنا من الدفاع عن نفسيهما أحسا بأن رأسيهما

سمرتهما يد بدت لهما قوية كما لو كانت كلابة حديد واختنقا وتخاذلت سواعدهما ولم يستطيعا حراكا وقال بارنيت في هدوء عجيب.

– أولجا فوبان.. تكرمي بفتح الباب واستدعاء بيشو.

وثبت أولجا من السلم وأسرعت نحو الباب بقدر ما سمحت لها قوتها المتخاذلة وصاحت بيشو... بيشو...

وعادت مع المفتش وكلها حماس وخوف في نفس الوقت وقالت

– قضى الأمر إنه شل حركتهما وحده ما كنت أتوقع هذا منه أبدا.

وقالت بارنيت يخاطب بيشو:

– هاك زبوناك ما عليك إلا أن تضع الأصفاد في أيديهما حتى أتركهما يتنفسان المسكينين كلا لا تقسو عليهما يا بيشو أؤكد لك أنهما سيلزمان الهدوء أليس كذلك يا دل بريجو...

ونهض، وقبل يد أولجا التي راحت تتأمله بإعجاب ثم صاح في مرح: آه يا بيشو إنه لصيد جميل.. وحشان من أكبر الوحوش الضارية وأشدهما خبثا ومكرا لك كل تهانئتي يا دل بريجو للطريقة التي ابتكرتها. وراح يغرز أصابعه المتوترة في صدر الأستاذ وكان بيشو يمسكه جيدا من قيده واستطرد يقول في مرح متزايد.

– أقول إنها عبقرية منذ لحظات عندما كنت مختبأ في غرفة البواب حيث كنت أقوم بالمراقبة أنا وبيشو وكنت قد عرفت خدعتك رأيت أن الذي دخل آخر مرة لم يكن أنت ولكن بيشو بعد لحظة من الشك وقع في الفخ واعتقد أن ذلك ذا القفاز الأبيض والطاق الأبيض والقبعة الفاتحة اللون والبدلة السمراء هو دل بريجو الذي رآه يمر أكثر من مرة الأمر الذي سمح لدل بريجو رقم ٢ أن يصعد بهدوء وأن يتسلل داخل الدولاب تماما كما فعلها في الليلة التي اختفت فيها غرفة النوم في جوف الظلام وتجرؤ فتقول إن هذه ليست عبقرية كان من الواضح أن بارنيت لم يعد يستطيع السيطرة على فرحته الغامرة ووثب وثبه كبيرة ألقى نفسه بعدها فوق الأرجوحة وانتقل منها إلى عمود ثابت وراح يدور حوله ثم أمسك بالحبل ووثب منه إلى الحلقات، أشبه بحركات قرد في القفص ولم يكن هناك أغرب ولا أعجب من أطراف معطفه الطويل التي كانت تتطاير وتدور خلفه بطريقة مثيرة مضحكة.

ووجدته أولجا وهي لا تزال في أوج اضطرابها أمامها.

فجأة.

وقال: ضعي يدك على قلبي أيتها السيدة الجميلة إن النبض عادي تماما أليس كذلك؟ ورأسي.. ولا قطرة عرق.

وأمسك بسماعة التليفون وطلب رقما وقال.

– إدارة الأمن؟.. قسم الأبحاث آه.. هذا أنت يا ألبير.

أنا بيشو.. ألا تعرف صوتي؟ هذا لا يهم أبلغ الإدارة بأن المفتش بيشو ألقى القبض على قاتلين دبرا سرقة مسكن أولجا فوبان.

ومد يده نحو بيشو وقال: كل المجد لك أنت يا صديقي العزيز.. إننى أحييك يا سيدتي أراك تنظر إلى ببرود يا دل بريجو.

غمغم دل بريجو أظن أنه لا يوجد غير رجل واحد جدير بأن يخدعني هكذا..

– ومن هو؟

– أرسين لوبين.

صاح بارنيت: أخيرا هذا تحليل رائع يا دل بريجو وسوف نذهب بعيدا إذا لم تفقد رأسك ولكنها ليست متماسكة فوق كتفيك.

وانفجر ضاحكا وحيا أولجا وخرج وهو يغنى ايزيدور بيحبني ولكنني أحب جيم.

وفي اليوم التالي ضيق المحققون على دل بريجو وأرهقوه بالأدلة بحيث اضطر أن يعترف بأن المسروقات مخبؤة في حظيرة في الضواحي

وكان اليوم يوم الثلاثاء، وهكذا بر بارنيت بوعده.

واضطر بيشو إلى السفر في الأرياف وقضاء بضعة أيام في مهمة رسمية وعندما عاد وجد رسالة من بارنيت هذا نصها:

أعترف أنني كنت كريما فأنا لم أجن صلديا واحدا في هذه القضية ولم أقتطع شيئا لنفسي كما تخشى ومن ناحية أخري فإن خير جزاء لي أن أحتفظ باحترامك وتقديرك.

وبعد ظهر اليوم مضى بيشو إلى مكتب بارنيت وفي نيته أن يقطع علاقته به، ولكنه وجد المكتب مغلقاً وعليه هذه اللافتة:

مغلق بسبب الحب

سيفتح من جديد بعد شهر العسل

وزمجر قائلاً وهو يشعر ببعض القلق: ما معنى هذا بحق الشيطان!

وأسرع إلى أولجا. فوجد المسكن مغلقاً هو الآخر، وهرع إلى الفولى بيرجير فقيل له إن الفنانة الكبيرة دفعت تعويضاً كبيراً وفسخت عقدها ورحلت في أجازة، وخرج إلى الشارع وهو يغمغم:

- يا للشياطين! أيمكن هذا؟.. بدلاً من أن يقتطع لنفسه نقوداً انتهز انتصاره وسمح لنفسه بإغراء...

شك فظيع، ويأس لا مثيل له. ولكن كيف يعرف، أو بالأحرى، كيف يتصرف لكي لا يعرف ولا يحصل على يقين يخشاه أكثر من أي شيء.

ولكن مما يؤسف له أن بارنيت لم يرحم فريسته، فقد تلقى بيشو مراراً كثيرة بطاقات بريدية مصورة وعلى كل منها عبارة كلها حماس جنوني:

«آه يا بيشو!... يا لضوء القمر في روما!... إذا حدث وأحببت يا بيشو فاذهب إلى صقلية.

وكان بيشو يصر على أسنانه ويقول: أيها الوغد. إنني غفرت لك كل شيء إلا هذا، فلن أغفره لك أبداً. وسوف أنتقم سريعاً.

* * *

القبض على جيم بارنيت

دخل بيشو إدارة الأمن واجتاز ممرات وارتقى سلالم، وفتح باباً من غير أن يطرقه واندفع نحو رئيسه المباشر، وقال وقد انقلبت سحنته من فرط الانفعال:

– إن جيم بارنيت ضالع في قضية ديروك. رأيته أمام بيت النائب ديروك بعينى هاتين.

– جيم بارنيت؟

– نعم. المخبر السري الذي كلمتك عنه مراراً أيها الرئيس والذي اختفى منذ بضعة أسابيع.

– مع الراقصة أولجا؟

صاح بيشو وقد تملكه الغضب: نعم، زوجتي السابقة!

– وبعد.

- إننى تعقبته.

- دون أن يدرى؟

- أوه. لا يمكن لمن أتعقبه أن يشعر بذلك أبداً. ومع ذلك فقد كان ذلك الشقى يتخذ احتياطاته ويتظاهر بأنه يتسكع. دار بميدان الأتوالى، وسلك شارع كليبر، وتوقف في ميدان تروكا ديرو، بجوار امرأة. امرأة جالسة فوق دكة. امرأة يبدو أنها من الغجر، جميلة وغريبة الأطوار بشالها الملون وشعرها الأسود الممشط على هيئة برنيطة. وبعد دقيقة أو دقيقتين تبادلا الحديث همساً وهما يشيران ببصرهما أكثر من مرة إلى بيت واقع على ناصيتى شارع كليبر والميدان. ثم نهض واستقل المترو.

- وأنت تتعقبه دائماً؟

- نعم. ولكن مر ترام على الخط المقابل لسوء الحظ فلم أجد الوقت لكي أستقل المترو بدوري. وعندما عدت إلى الميدان كانت الغجرية قد اختفت.

- ولكن ذلك المنزل الذي أشارا إليه.. هل مضيت إليه؟

- إننى أتيت منه الآن يا سيدي الرئيس.

وراح بيشو يتكلم وهو يشدد الضغط على كلماته في زهو كبير:

- يقيم في الطابق الرابع من ذلك البيت، منذ أربعة أسابيع، والد

المتهم، الجنرال ديروك، وهو ضابط متقاعد، أقبل من الريف، كما تعرف، لكي يدافع عن ابنه المتهم بالاختطاف والتعذيب والقتل.

وكان لقوله تأثيره وعاد الرئيس يقول:

– وهل رأيت الجنرال؟

– إنه فتح لي الباب بنفسه، وعلى الفور حدثته بالمشهد الصغير الذي رأيته. ولم تأخذه الدهشة، ففي اليوم السابق، زارته امرأة بوهيمية، وعرضت عليه خدماتها في التنجيم والتنبؤ بالورق، وطلبت ثلاثة آلاف فرنك. وهي تنتظر رده اليوم في ميدان التروكا ديرو، فيما بين الساعة الثانية والثالثة، وستصعد إليه عند أول إشارة منه.

– وماذا تعرض عليه؟

– قالت له إنها ستعثر على الصورة الشهيرة وتأتيه بها.

هتف الرئيس: الصورة التي نبحث عنها عبثاً؟

– هي بالذات، تلك التي ستنقذ النائب ديروك أو تدينه طبقاً لوجهتي نظر الاتهام والدفاع.

تلى ذلك صمت طويل ثم تمتم الرئيس كما لو يبوح بسر:

– أنت تعرف يا بيشو مدى اهتمامنا بالحصول على هذه الصورة.

- أعرف ذلك.

- لا يكفي أن تعرف ولكن يجب... هل تسمع يا بيشو... يجب أن تقع هذه الصورة بين أيدينا قبل أن تحصل عليها النيابة.

وأردف يقول في صوت أشد خفوتاً: البوليس أولاً.

أجاب بيشو في نفس اللهجة الخطيرة: ستحصل عليها أيها الرئيس، وسأسلمك البوليس السري بارنيت في نفس الوقت.

* * *

قبل ذلك بشهر انتظر المالى فير اللدى، أحد ملوك باريس، بفضل ثروته وعلاقاته السياسية، وجسارته، ونجاح مشروعاته، انتظر زوجته في ساعة الغداء، ولكنها لم تكن قد عادت بعد عندما هبط الليل، ولم يرها أحد طوال الليل. وقام البوليس بأبحاثه وتحرياته، وثبت بالدليل القاطع أن كريستيان فيرالدى تخرج كل صباح من بيتها الكائن على مقربة من غابة بولونيا وتتنزه في الغابة، وأن رجلاً اقترب منها في ممر مقفر وجرها إلى سيارة مغلقة وانطلق بها مسرعاً ناحية السين. ولم يتبين أحد ملامح الرجل، ولكن بدا أنه شاب، وكان يرتدى معطفاً سميكا أزرق اللون، ويضع على رأسه قبعة سوداء، ولم يعرف عنه أحد شيئاً آخر.

وانقضى يومان ولم يسمع أحد عنها شيئاً.

ثم كانت المفاجأة، فبعد ظهر أحد الأيام رأى بعض الرجال الذين يشتغلون على مقربة من شارع شارتر بباريس سيارة تنطلق بسرعة كبيرة، ارتفعت فيها صيحات فجأة، ثم شاهدوا أحد أبوابها تفتح وامرأة تلقى منه في الفضاء.

وأسرعوا إليها على الفور.

وفي نفس الوقت صعدت السيارة فوق منحدر واندفعت بسرعة واصطدمت بشجرة وانقلبت، وخرج منها رجل سليم لم يصب بشيء وعاد يجرى نحو المرأة.

كانت قد ماتت، فقد اصطدمت رأسها بكتلة من الحجر.

ونقلت إلى قرية قريبة وأبلغوا المخفر. ولم يتردد الرجل في ذكر اسمه وقال إنه النائب ديروك، العضو المشهور بمجلس النواب، وزعيم حزب المعارضة. أما المرأة القتيل فقد كانت هي مدام فيرالدى.

وبدأت المعركة على الفور، عنيفة وشرسة، من ناحية الزوج، ولم تكن بأقل عنف وشراسة من ناحية النيابة، وقد أثارها بعض الوزراء الذين يهمهم ضياع النائب ديروك. لم يكن هناك أي شك في حادث الاختطاف حيث إن جان ديروك كان يرتدي ثياباً زرقاء اللون وقبعة سوداء تماماً كالرجل الذي هاجم كريستيان فاليرى. أما عن القتل، فقد

كانت شهادة الفلاحين قاطعة، فقد رأوا ذراع الرجل وهو يدفع المرأة، ويلقى بها إلى الخارج. وطلبت النيابة رفع الحصانة البرلمانية عنه.

وتصرف جان ديروك تصرفاً زاد الاتهام ضدة قوة، فقد اعترف دون لف أو دوران بالاختطاف، ولكنه كذب شهادة الفلاحين بكل قوة، وقال إن مدام فيرالدى وثبت من العربة بنفسها، وأنه بذل المستحيل لكي يمنعها من ذلك.

أما عن أسباب الانتحار، وعن ظروف الاختطاف، وعما حدث أثناء اليومين اللذى غابت فيهما، وعن المناطق المرتادة، والتطورات التي سبقت النهاية المأساوية فقد لزم الصمت التام. ولم يستطع المحققون إثبات أين ومتى عرف مدام فيرالدى، أو إذا كانت هي قد عرفته بما أن مسيو فيرالدى، المالي المعروف، قال إنه لم يسبق له أن تعرف به.

وعندما ضيقوا عليه بالأسئلة أجاب:

– ليس لدى ما أقوله أكثر من ذلك، ولكم أن تعتقدوا ما تشاءون، وأن تفعلوا ما يروق لكم فلن أقول شيئاً مهما حدث.

ولم يحضر جلسة مجلس النواب.

وفي اليوم التالي، عندما دق رجال البوليس على بابه، وبينهم بيشو، فتح لهم بنفسه وقال: إنني لي استعداد لأن أتبعكم أيها السادة.

وقاموا بتفتيش دقيق، ووجدوا في المدفأة، بغرفة المكتبة رماداً عرفوا منه أنه أحرق أوراقاً كثيرة. وبحثوا في الأدراج، وأفرغوا المنقولات، وتصفحوا الكتب، وحزموا رزماً من الأوراق والمستندات.

وكان جان ديروك يتابع في غير اكتراث ذلك التفتيش العجيب، ووقع حادث واحد كان له تأثيره الشديد والعنيف، فقد أبدى بيشو ذكاء أكثر من زملائه وعثر في علبة بها بعض الأوراق على لفافة رفيعة من الورق لم يفطن إليها أحد، وهم بفحصها عندما هجم عليه جان ديروك وانتزعها من يده وهو يقول: أنت ترى تماماً أنه لا أهمية لها.. إنها صورة.. صورة قديمة انفصلت عن ورقتها الكرتون.

وكان أن تصرف بيشو بكل عنف وقوة إزاء اضطراب ديروك، وغرابة العمل الذي أقدم عليه. وأراد أن يسترد اللفافة، ولكن النائب خرج وهو يجرى، وأغلق الباب خلفه، وأسرع إلى الغرفة المجاورة حيث يقوم بحراستها أحد حراس الأمن. ولحق به بيشو وزملاؤه على الفور. ودارت بينهم مناقشة حادة، وفتشوا جيوب جان ديروك، ولكن لفافة الورق التي تضم الصورة لم تكن معه. واستجوبوا الحارس، فقال إنه اعترض طريق الهارب. أما عن المستند الذي يبحثون عنه فإنه لم ير شيئاً. وألقى القبض على النائب واقتيد إلى السجن.

هذه هي المأساة في خطوطها الرئيسية، وقد أثارت ضجة كبيرة في حينها (وكان ذلك قبل الحرب العالمية بقليل بحيث إنه لا داعي لأن تذكر تفاصيلها التي لا يجهلها أحد، ولا مراحل التحقيق التي لم تسفر عن شيء، ولولا تدخل بيشو لظلت مستغلقة حتى يومنا هذا. والأمر لا يتعلق إطلاقاً بإماطة اللثام عن قضية ديروك، وإنما بإظهار الحلقة الخفية التي تسببت في معرفة نهايتها، وكذلك في إنهاء الصراع الدائر ين بيشو وهزيمة البوليس السري بارنيت.

في تلك المرة كانت مع بيشو، على الأقل ورقة رابحة كبيرة، مادام قد أدرك لعبة بارنيت وأصبح يعرف الوسيلة التي سيعمل بها هذا الأخير، وما دامت القضية ستدور في نفس الأرض التي سيحتلها بيشو. والواقع أنه في صباح اليوم الذي حدده له مدير البوليس بنفسه، طرق باب الجنرال ديروك.

فتح له الباب خادم له كرش كبير، ويبدو من مظهره، في سترته الطويلة كما لو كان من موثقي العقود في الأقاليم. وأدخل بيشو، ووقف المفتش من الساعة الثانية حتى الثالثة خلف نافذة. وراقب ميدان تروكا ديرو. ولكن الغجرية لم تأت، لا في ذلك اليوم ولا في اليوم الذي يليه. ويبدو أن بارنيت قد استراب في الأمر.

تشبث بيشو برأيه، واتفق في ذلك مع الجنرال ديروك، وهو رجل نحيف، طويل القامة، بادى النشاط والعزم، يحتفظ تحت سترته الرمادية بمظهر الضابط القديم، وهو من هؤلاء الرجال المعروفين ببرودهم وصلابتهم، والذين لا يكثرون الكلام، ولكن تحت سورة بعض الانفعالات يحتدون ويتجادلون بكل عنف. وكان شغفه الوحيد هو ابنه، ولم يكن يشك في براءته، ومنذ أن وصل باريس وقد أعلن ذلك في أحاديثه التي أثارت الرأي العام.

– أن جان غير جدير بمثل هذا العمل الشرير. وليس به غير عيب واحد وهو إفراطه في نزاهته، ولا يتردد في الإضرار بنفسه إلى حد إغفال مصالحه هو بالذات. ولهذا فإننى أرفض أن أراه في سجنه أو أن أتحدث إلى محاميه، ولا أهتم بتردده وصمته. ولم آت لكي أتفق معه وإنما لكي أدافع عنه ضد نفسه. ولكل امرئ منا دواعيه وإذا كانت دواعيه أن يلتزم الصمت فإن دواعى أنا تقتضي مني أن أحافظ على اسم العائلة من أي تدنيس.

وصاح في يوم ضيقوا عليه بالأسئلة:

– هل تريدون رأى؟ ها هو. أقول دون أية مراعاة إن ابنى لم يختطف تلك المرأة، وإنما تبعته طواعية. وهو يلتزم الصمت لأنه لا يريد اتهام

امرأة ماتت، وكانت له معها، على ما أعتقده علاقات وثيقة. فلتبحثوا عن الحقيقة.

وكان هو يبحث بكل همة ونشاط ويقول لبيشو:

– إن لي في كل مكان أصدقاء أقوياء وأوفياء، يتفانون في استقصاء هذه القضية، وهي قضية محدودة النطاق كما تعتقد أنت بالذات أيها المفتش ما دام لا ينقصنا ولا ينقصك غير دليل واحد وهو الصورة الشهيرة. كل القضية هنا، بين المالى فيرالدى والخصوم السياسيين لابنى، بمساعدة بعض وزراء الحكومة للعثور على المستند الذي يدينه. وقد فتشوا البيت وتلبسوا كل ما فيه، وقدم فيرالدى مكافأة لمن يدله على مكانها. فلننتظر. ففي هذه الصورة سيكون لدينا الدليل الساطع على براءة ابني.

أما بيشو فلم يهمه كثيراً ثبوت براءة الابن أو عدم ثبوتها، فقد كانت مهمته قاصرة على العثور على الصورة. وكان يعرف أنها إذا كانت تثبت براءة النائب ديروك فإن أعداءه سيعملون على إخفائها بالذات. ورأى من واجبه أن يكون يقظاً وأن ينتظر البوهيمية التي أبت أن تأتي. وكان يترقب بارنيت الذي ظل مختفياً. وراح يلاحظ حديث الجنرال ديروك، وكان هذا الأخير، من ناحيته، يروى مساعيه وآماله ومخاوفه.

وذات يوم، بدأ فيه الضابط مستغرقاً في التفكير، خاطب بيشو قائلاً:

– انتهينا أنا وأصدقائي إلى الاعتقاد أن الشخص الوحيد الذي يمكنه أن يدلنا على اختفاء تلك الصورة هو حارس الأمن الذي اعترض ابنى يوم اعتقاله. ولكن الغريب أن أحداً لم يذكر لنا اسم ذلك الحارس، لقد جندته الفرقة التي ذهبت لتفتيش البيت واصطحبته معهم من القسم الذي يعمل فيه لمعاونتهم. فماذا حدث له؟ لا أحد يعلم، على الأقل بين زملائه. ولكن السلطات العليا تعرفه، ونحن نثق أيها المفتش أن ذلك الشرطي قد استجوب وأنه وضع تحت مراقبة دقيقة يومية. ويبدو أنهم فتشوا بيته هو الآخر، وبيت أسرته، وأنهم فحصوا كل ملابسه وكل مفروشاته. هل أستطيع أن أقول لك اسم المفتش الذي كلفوه بهذه المراقبة.. إنه المفتش بيشو، الموجود أمامي هنا.

ولم يكذب بيشو الأمر ولم يعترف. فصاح الجنرال:

– مسيو بيشو. إن صمتك يؤيد معلوماتي، وأنا واثق أن هذه المعلومات يجب أن تكون لها نتيجة. ويجب أن تأتيني بذلك الشرطي. أبلغ من له الحق بذلك، وإذا ما رفض فسوف أرى ما يجب على أن أعمل.

وأبلغ بيشو ما طلب منه طواعية، خاصة وأن خطته لم تنجح فماذا إذا سيفعل بارنيت، وما هو الدور الذي يقوم به في هذه القضية، فهو

ليس بالرجل الذي يبقى مكتوف اليدين، وسوف يجد نفسه أمامه فجأة، بعد أن يكون الوقت قد فات.

وأعطته السلطات العليا تفويضاً مطلقاً. وبعد يومين أدخل سيلفستر، خادم الجنرال، بيجو والشرطي ريمبورج، وهو رجل شهم، هادئ المظهر في زيه الرسمي ومسدسه وعصاته البيضاء على جانبيه.

وكانت المقابلة طويلة، ولم تسفر عن أية نتيجة مفيدة، فقد كان ريمبورج قاطعاً، وقال إنه لم ير شيئاً. ومع ذلك فقد ذكر أمراً فهم منه الجنرال أنه يدين بوظيفته التي يشغلها إلى تدخل النائب ديروك وكان قد عرفه في الجيش.

توسل الجنرال إليه وهدده، وتكلم باسم ابنه، ولكن ريمبورج لم يتأثر على الإطلاق، وقال إنه لم ير الصورة، وأن النائب ديروك، في اضطرابه بالذات، لم يعرفه. وإذا أعيت الجنرال الحيل استسلم للواقع. وقال له: أشكرك. وإنى أريد أن أصدقك. ولكن هناك في علاقاتك مع ابنى مصادفة غريبة بحيث إنني احتفظ بشكوكي.

ودق الجرس، وقال لسيلفستر عندما أقبل:

- شيع مستر ريمبورج حتى الباب يا سيلفستر.

خرج الخادم وحارس الأمن. وتناهى إلى أسماع الجنرال وبيشو

صوت باب الردهة وهو يغلق. والتقت عينا بيشو في هذه اللحظة بعين الجنرال. وخيل للمفتش أنه يرى فيهما تعبيراً ساخراً.. وفرحة غريبة لا يبررها أي شيء. ومع ذلك...

وانقضت بضع لحظات، وفجأة، حدث شيء مذهل راح بيشو ينظر إليه في غباء في حين أن الجنرال راح يبتسم، فقد تقدمت إلى الغرفة من الباب الذي ظل مفتوحاً هيئة غريبة. عبارة عن زراعين يمشيان من كل جهة منها رأس مقلوبة نحو الأرض، ونصفها الأعلى مستديرة فوقه ساقان رقيقان يهتزان نحو السقف.

واعتدلت الهيئة فجأة، ودارت حول نفسها كالنحلة، على طرف قدم يعتمد القدم الآخر عليه. لم تكن تلك الهيئة غير سيلفستر وقد استولى عليه الجنون فجأة وراح يدور كما يفعل الدرويش، وكرشه الكبير تهزه ضحكة تصعد من فم مفتوح كما لو كان قمعاً عريضاً.

ولكن، أما كانت تلك الهيئة هي سيلفستر حقاً؟ بدأ بيشو، أمام هذا المنظر العجيب، يحس بأن رأسه كلها تتصبب عرقاً. أهذا حقاً سيلفستر، الخادم البدين، بمظهره كمسجل عقود في الأرياف.

توقف فجأة أمام بيشو وقد اتسعت عيناه، وأزال من وجهه التكشيرة التي توتره، كما لو كانت قناعاً. وفك أزرار سترته وصديره،

وتخلص من بطنه الكاوتشوكية وارتدى سترة ناولها له الجنرال ديروك. ونظر إلى بيشو من جديد، وقال في لهجة قاسية:

– إن بيشو أبله كبير.

لم يغضب بيشو، فقد بدأ من مظهره المحزن أنه يرفض بكل الإهانات، وقال في بساطة: بارنيت!

وأجابه الآخر: نعم، بارنيت.

كان الجنرال ديروك يضحك من قلب خلى. وقال له بارنيت:

– التمس معذرتك يا جنرال. ولكنني، عندما أنجح، تتملكني فرحة كبيرة بحيث لا أملك إلا أن أقوم بحركات بهلوانية أو راقصة تثير الضحك.

– إذن فقد نجحت يا مسيو بارنيت!

أجاب بارنيت: أظن ذلك، وبفضل صديقي العزيز بيشو. ولكن لا يجب أن نجعله ينتظر. ولنبدأ من البداية.

وجلس. وأشعل الجنرال سيجارة. وأشعل بارنيت هو الآخر سيجارة وبدأ يقول:

– حسناً يا صديقي بيشو. جاءتني وأنا في أسبانيا برقية من صديق

مشترك يطلب مني مساعدة الجنرال ديروك. وكنت أقوم برحلة غرامية، ولعلك تتذكر، مع امرأة ظريفة. ولكن الحب بدأ يفتر بيننا. وانتهزت هذه الفرصة لكي أسترد حريتي، وعدت بصحبة بوهيمية فاتنة، التقيت بها في غرناطة. وراقت لي القضية لأنك أنت الذي كلفت بها. واستنتجت على الفور أنه إذا كان هناك دليل على براءة أو إدانة النائب ديروك فلابد من الحصول عليه من حارس الأمن الذي اعترض الطريق أثناء فراره. وهنا أعترف لك يا بيشو أنه، رغم كل الوسائل والمحاولات لم أفلح في معرفة اسم ذلك الرجل الشهم. في العمل؟. كانت الأيام تمر، وأصبحت المحنة قاسية بالنسبة للجنرال وابنه، ولم يبق أمامي غير أمل واحد، وهو أنت.

لم يتحرك بيشو. أحس بالإحباط التام، وأنه أصبح ضحية أسوأ خداع، فما من علاج، ولا من أي عمل ممكن، فقد وقع الشر. وعاد بارنيت يقول:

– نعم، أنت يا بيشو. فقد كنا نعلم إنك من الذي كلفت بمراقبة واستجواب حارس الأمن. ولكن كيف نجتذبك هنا؟ كان الأمر سهلاً، فقد اعترضت طريقك ذات يوم، وجعلتك تتعقبني حتى ميدان الثروة ديرو، حيث كانت تنتظرني حسنائى البوهيمية. وببضع

كلمات متبادلة همساً، وبضع نظرات إلى هذا البيت ووقعت في الفخ. ولم تعد تفكر إلا في الإيقاع بي أو بالبوهيمية. وجعلت من هذا البيت ميدان حرب، بجوار الجنرال وخادمه سيلفستر، أي بجواري، وبذلك استطعت أن أراك كل يوم وأن أسمعك، وأن أثير حماسك بواسطة الجنرال ديروك.

وتحول بارنيت إلى هذا الأخير وقال له:

– لك كل تهانئى يا سيدي الجنرال، فإنك عاملت بيشو برقة وبراعة تغلبا على شكوكه، وقادني إلى الهدف وهو أن يضع تحت تصرفنا لبضع دقائق حارس الأمن... أجل يا بيشو. كانت بضع دقائق كافية تماماً. فماذا كان الغرض؟... غرض البوليس والنيابة والجميع؟ هو العثور على الصورة، أليس كذلك؟ كنت أعرف براعتك، ولم أشك في أن أبحاثك قد امتدت إلى حدود الإتقان. إذن فلا جدوى من البحث بنفس الطرق والوسائل التي سلكتموها ألف مرة. كان يجب أن نتصور شيئاً آخر... شيئاً آخر غير عادي وغير مألوف، بحيث إذا أتينا بالحارس هنا نسلبه منه خفية ومن غير أن يشعر وبسرعة. فالثياب والجيوب والبطانات وكعوب الأحذية المجوفة. كل ذلك خدع مستهلكة. وكان لابد مما تخيلته أنا يا بيشو: المحال والعادى.. المخبأ العجيب والطبيعي في نفس

الوقت والمتوفر بسبب مهنة ذلك الرجل أكثر من أي شخص آخر. ما الذي يتميز به حارس الأمن في مهنته إذن؟... دونا عن غيره. ما الذي يميزه عن الشرطي العادي؟ أو عن مفتش بوليس؟ فكم تحاول أن تعرف يا بيشو. أنني أمهلك ثلاث ثوان لا أكثر حيث إن الأمر واضح وضوح الشمس. واحد. اثنان. ثلاثة. هل وجدت؟. وهل فهمت؟

ولكن بيشو لم يفهم ولم يجد. ورغم غرابة الموقف. راح يحاول أن يجمع أفكاره، وأن يستعرض أمام عينيه حارس أمن يقوم بوظيفته. وقال بارنيت:

– هلم يا صديقي المسكين... أنت لست في أحسن حالاتك اليوم، وأنت الثاقب الفكر دائماً.. هل يجب أن أضع النقط فوق الحروف؟

ووضع بارنيت شيئاً فوق أنفه هو بالذات. وكان قد اندفع خارج الغرفة ثم عاد وهو يضع فوق أنفه في حالة توازن عصا الشرطي، تلك العصا الصغيرة البيضاء التي يستخدمها رجال الشرطة في باريس، وفي لندن في حفظ النظام ويسيطرون بها على الشغب ويشيرون بها إلى العربات ويهيمنون بها على اللصوص والأشرار صفوة القول تلك التي يبدون بها كأنهم ملوك الشوارع وسادة الساعة. وراح بارنيت يقذف بها في الفضاء ثم يستردها في يده بحركات بهلوانية ويمررها من بين ساقه

ثم خلف ظهره وحول عنقه. وأخيراً أمسكها بين سبابته وإبهامة وقال:

– أيتها العصا الصغيرة البيضاء... يا رمز السلطة... أنت التي أخذتها من حمالة الشرطي ريمبورج ووضعت أخرى شبيهة لك مكانها، لم أخطئ طبعاً عندما اشتبهت في أنك المخبأ المثالي الذي نبحث عنه.

وأمسك العصا الصغيرة بيده اليسرى وراح يدير مقبضها بيده اليمنى، فدار في يده ولم يثبت أن انفصل عن العصا. وقال:

– هذا ما ظننت تماماً... يا له من عمل رائع وصعب يكاد يكون مستحيلاً. معجزة من الذكاء والدقة. من الذي كان يخطر له أن الشرطي ريمبورج معه مثل هذه المعجزة، وبأية أعجوبة تمكنوا من حفر قناة بداخلها وصنع مقبض لولبى بحيث لا يستطيع أحد أن يميزها عن غيرها من العصى!

وأخرج بارينت من تجويف العصا حلقة مستطيلة من النحاس، بينما كان الجنرال ديروك وبيشو يحدقان فيه في ذهول. وانقسمت الحلقة إلى جزئين ظهر في الجزء الأول منها أنبوبة من النحاس هي الأخرى كانت مغروزة في الحلقة حتى آخرها.

توترت الوجوه، وانحبست الأنفاس. وراح بارنيت يعمل رغما عنه، في شيء من الخطورة، فأخرج الأنبوبة وراح يضربها فوق المنضدة

فسقطت منها لفافة من الورق.

وصاح بيشو وقد امتقع وجهه: الصورة... إنني أعرفها.

- أنت تعرفها، أليس كذلك؟... خمسة عشر سنتيمترا تقريباً، وقد انتزعت من كرتونتها، وتجمدت تقريباً... هل تريد أن تبسطها يا سيدي الجنرال؟

أخذ الجنرال ديروك المستند بيد فقدت هدوءها الطبيعي. كان بها أربع رسائل وبرقية مشبوكة بدبوس. وتأمل الصورة لحظة، ثم عرضها على زميليه وهو يقول بصوت يتهدج قليلا من فرط الانفعال والسرور، ثم القلق الفجائي.

- صورة امرأة.. امرأة شابة، تضع طفلاً فوق ركبتها.. ملامحها نفس ملامح مدام فيرالدى كما ظهرت في الجرائد.. إنها هي دون شك، منذ تسع أو عشر سنوات. ثم إن التاريخ مدون عليها.. إن الصورة ترجع إلى إحدى عشرة سنة والتوقيع الذي عليها باسم كريستان، وهو نفس اسم مدام فيرالدى.

وغمغم بعد لحظة: ماذا يجب أن نفهم.. هل كان ابنى يعرفها إذن في ذلك الوقت، قبل أن تتزوج؟

قال بارنيت: اقرأ الرسائل يا سيدي الجنرال.

وناوله أولى ورقة. وكانت مستهلكة عند الطيات ومكتوبة بخط نسائي.

وقرأ الجنرال ديروك، وما كاد يقرأ سطورها الأولى حتى كتم صيحة كما لو أنه عرف شيئاً خطيراً ومؤلماً. واستمر في قراءته في لهفة، وقرأ الرسائل الأخرى ثم البرقية التي قدمها إليه بارنيت. وسكت الجنرال لحظة وقد بدا عليه الاضطراب والقلق. وقال بارنيت.

– هل يمكن أن تفسر لنا الأمر يا سيدي الجنرال؟

لم يرد الجنرال على الفور. واغرورقت عيناه بالدموع ثم قال أخيراً.

– أنا المذنب الحقيقي.. فمنذ اثنتى عشرة سنة أحب ابنى فتاة من عامة الشعب.. عاملة بسيطة.. أنجب منها طفلا... وأراد أن يتزوجها، ولكنني بكبريائي الغبي رفضت أن أراها واعترضت على ذلك الزواج، وأوشك جان أن يتزوجها رغماً عني، ولكن الفتاة ضحت بنفسها. وهذه هي الرسالة الأولى.

«الوداع يا جان. أبوك لا يوافق على زواجنا، فلا يجب أن تعصيه فإن ذلك سيجر الشقاء على وليدنا العزيز.. إننى أرسل إليك صورتنا، أنا وهو معاً. فاحتفظ بها معك ولا تنسانا سريعاً».

ولكن كانت هي التي نسيت، فقد تزوجت فيرالدى. وعهد جان بالطفل إلى مدرس متقدم في السن في ضواحي شارتر، حيث كانت أمه

تمضى لرؤيته سراً.

انحنى بارنيت وبيشو، فقد كان الجنرال يتكلم في صوت خافت، كما لو أنه يحدث نفسه وهو لا يرفع عينيه عن الرسائل التي توجز الحاضر الأليم. وقال:

– إن الرسالة الأخيرة فترجع إلى خمسة شهور.. بضعة سطور تعترف فيها كريستيان بأسفها وندمها وتقول إنها تحب الطفل كل الحب ثم لا شيء. وأخيراً هذه البرقية، وقد أرسلها المدرس إلى جان ويقول فيها: «الولد مريض جداً فقال» وعلى هذه البرقية كتب ابنى هذه العبارة المهولة التي تشير إلى النهاية الفظيعة: ابننا مات وكريستيان انتحرت.

لزم الجنرال الصمت من جديد. على أن الحقائق كانت تفسر نفسها، فما أن تلقى جان البرقية حتى بحث عن كريستيان وجرها وهي متخاذلة نحو السيارة. واثناء العودة من شارتر، بعد أن قبلت ابنها الميت استولت عليها أزمة من اليأس وانتحرت.

وقال جيم بارنيت مستفهماً: علام عولت يا سيدي الجنرال؟

– سأعلن الحقيقة طبعاً، فإذا كان جان لم يتكلم فذلك لا لكي يتهم الميتة بالتأكيد وإنما لكي لا يتهمني أنا، فأنا المسئول عن هذه القصة المحزنة. ومع ذلك، فرغم ثقته بأن مدرس شارتر لن يخونه،

وبأن حارس الأمن ريمبورج سيلزم الصمت هو الآخر فإنه أراد أن لا تضيع الحقيقة وأن يدع القدر يتصرف وفق ما يشاء. وما دمت قد أفلحت يا مسيو بارنيت...

– إنني أفلحت يا سيدي الجنرال بفضل صديقي بيشو، فلا تنس ذلك. فلو أنه لم يأتني بالشرطي زيمبورج وبعصاته البيضاء لخسرت المعركة. فاشكر بيشو يا سيدي الجنرال.

– إننى أشكر كما معا، فقد أنقذتما ابنى ولن أتردد في القيام بواجبي.

أقره بيشو وقد تأثر بالأحداث بحيث تغلب على كرامته وتخلى عن الحصول على المستندات التي يبحث عنها البوليس، وتغلب ضميره الإنساني على ضميره المهني وإذ مضى الجنرال إلى غرفته اقترب من بارنيت، وألقى بيده على كتفه وهو يقول:

– إننى ألقى القبض عليك يا جيم بارنيت.

قال ذلك في سذاجة من يعرف تماماً أن تهديده غير مجدى وأنه إنما ينطق به مدفوعاً بإرضاء ضميره ولكى لا يخلى بواجبه، وهو إلقاء القبض على بارنيت.

وصاح هذا الأخير وهو يبسط له يده

– أحسنت يا بيشو، فها أنت قد ألقيت على القبض واعتقلتني، وتغلبت على بحيث لا يمكن لأحد أن يلومك والآن. وإذا سمحت، فإننى سأهرب حتى لا تطل صداقتك أية شائبة.

قال بيشو بتلك السذاجة التي يتميز بها وتجعله محبوباً من الجميع:

– إنك تفوقت علينا جميعاً يا بارنيت، وأن ما قمت به الآن لمعجزة حقاً. كيف ضمنت هذا؟... كيف خمنت وجود هذا المخبأ العجيب في عصا حارس الأمن، وذلك دون أي دليل؟

ضحك بارنيت وقال: آه. إن طعم المكسب يشحن الخيال.

قال بيشو في قلق: أي مكسب؟ ليس ما سيقدمه لك الجنرال ديروك على ما أظن.

– وما سأرفضه طبعاً، فإن مكتب بارنيت يعمل بالمجان، فلا تنس ذلك.

إذن؟

قال جيم بارنيت في ضراوة: إذن... وأنا أقرأ الرسالة الرابعة بركن عينى عرفت أن كريستيان فاليرى قد صارحت زوجها منذ البداية بماضيها. وبذلك، فإنه بعلمه بعلاقة زوجته القديمة ووجود الطفل قد خدع العدالة بإخفائه هذه الحقيقة وذلك بفرض انتقامه

من جان ديروك وإرساله إذا أمكن إلى المشنقة. وهو تصرف شنيع كما تعرف. فهل تعتقد أن الثرى فيرالدى لن يسره شراء مثل هذا الخطاب المشين... إذا ذهب إليه رجل شهم يريد كتمان الأمر ويعرض عليه ذلك بكل رفق ألا تعتقد أن فيرالدى سيقدم له مبلغاً محترماً. ومهما يكن فقد احتفظت بالرسالة في جيبي.

تنهد بيشو ولكنه لم ينطق بكلمة احتجاج، فالمهم أن البراءة قد ظهرت وأن الخير قد تغلب على الشر وأن الحق قد ظهر بصورة أو بأخرى. ولا يضيره تلك الاستقطاعات التي يقوم بها بارنيت في آخر دقيقة على حساب المذنبين والخطاة. وقال:

– الوداع يا بارنيت. ومن الخير أن لا نلتقى بعد اليوم وإلا انتهيت بأن أفقد ضميرى المهني إلى الأبد. الوداع.

– الوداع إذن يا بيشو. إنني أفهم دوافعك وهي دوافع تشرفك.

* * *

بعد بضعة أيام تلقى بيشو الرسالة التالية من بارنيت.

«أنهى إليك هذا النبأ السعيد يا صديقي العزيز، فرغم أنك لم تعتقل هذا الخبيث بارنيت كما وعدت، ورغم أنك لم تحصل على الصورة الفوتوغرافية كما صدر إليك الأمر بذلك فإننى استبسلت في الدفاع

عنك وفي إظهار الدور العظيم الذي قمت به في هذه القضية بحيث إنني حصلت على ترقيتك إلى رتبة رئيس المفتشين».

أتى بيشو بحركة تدل على الغضب. كيف يدين بترقيته لبارنيت؟ لم يكن هذا بالأمر المقبول.

ولكن، من ناحية أخرى، كيف يرفض إقرار المجتمع واعترافه بخدماته الجليلة وهو يعرف أنه يستحق تلك الترقية بكل جدارة.

وكان أن مزق الرسالة وقبل الترقية.

أديت العنقاء

– ما رأيك الحقيقى فى المفتش جانيمار ؟

– إنه رجل ممتاز .

– ممتاز ؟ لماذا لا تترك فرصة إذن إلا وتجعل منه أداة لسخريتك .

– إن هى إلا عادة سيئة، وأنا شديد الندم لذلك، ولكن ماذا تريد، إنها القاعدة، فهو رجل قدير من رجال البوليس، وهناك الكثير من رجال البوليس المكلفون بحفظ النظام والدفاع عنا ضد اللصوص، ويتعرضون للقتل فى سبيلنا نحن الرجال الشرفاء، ولا نعاملهم مقابل ذلك إلا بالتهكم والازدراء، وهذا منتهى الغباء.

– مرحى يا لوبين.. إنك تتكلم كبورجوازى صالح.

– وماذا تظننى إذن؟.. كان لى آراء خاصة فيما يتعلق بملكية الغير فإننى أقسم لك أن ذلك يختلف تمامًا إذا ما تعلق بملكيتى أنا.

والحق أننى أنصح بأن لا يفكر أحد فى المساس بما يخصنى لأننى أغدو عنيفًا عندئذ.. أوه.. أوه.. إن ممتلكاتى ومحفظتى وساعتى.. ممنوع لمسها، إن لى روح المحافظ يا صديقى العزيز، وغريزة رجل له دخل صغير عليه احترام كل التقاليد وكل السلطات، ولهذا يوحى إلى جانيمار بالكثير من التقدير والعرفان.

– ولكنه لا يوحى إليك إلا بقليل من الإعجاب.

– بل بإعجاب كبير كذلك، ففضلا عن شجاعته التى لا تقهر، وهى ميزة رجال البوليس، فإن جانيمار له مزايا كبيرة جدًّا، فهو لا يفتقر إلى الحزم ولا إلى الذكاء والحصانة، وقد رأيته وهو يعمل.

وإنه رجل. هل تعرف القضية التى اشتهرت باسم قضية أديت العنقاء.

– كما يعرفها الجميع.

– إذن فأنت تعرف عنها القليل، حسنا، قد تكون هى القضية التى أتقنت تدبيرًا بكل عناية وبكل حرص وجمعت فيها كل الغموض والأسرار، والتى نفذتها بكل مهارة وهدوء، كأنها مباراة دقيقة فى الشطرنج.. دقة وبراعة فائقتين، ومع ذلك فإن جانيمار انتهى بأن فك طلاسمها.

وإذا كان أولو الأمر فى إدارة البوليس يعرفون الحقيقة الآن فالفضل فى ذلك له وحده، وأؤكد لك أنها حقيقة ما كانت تخطر على بال أحد.

– وهل أستطيع معرفتها؟

– بالتأكيد.. فى ذات يوم.. عندما أجد متسعًا من الوقت، ولكن البرونللى ترقص الليلة فى الأوبرا، وإذا هى لم ترنى فى مقعدى.

ولقاءاتى بلوبين نادرة، ثم إنه يدلى إلى باعترافاته بصعوبة، وعندما يروق له ذلك، ولم أعرف مراحل هذه القصية إلا بكلمات متقطعة من وقت لآخر، وفلتات من اعترافاته جمعتها فيما بعد، وأسوقها إليكم الآن بكل تفاصيلها.

***

والبداية معروفة، وسأكتفى بعرض الحقائق.

منذ ثلاث سنوات عندما بلغ القطار القادم من برست محطة رين وجد باب إحدى المركبات محطمًا، وكان قد استأجرها ثرى برازيلى يدعى الكولونيل سبارمبينتو، وكان يسافر مع زوجته فى نفس القطار.

وكان بالمركبة التى تحطم بابها مجموعة من السجاجيد، واغتصب صندوق يحتوى على سجادة منها، وقد اختفت من الصندوق.

وقدم الكولونيل سبارمبينتو شكوى ضد شركة السكك الحديدية، وطالب بتعويض كبير بسبب انخفاض قيمة المجموعة كلها نتيجة لتلك السرقة.

وقام البوليس بالتحقيق ووعدت الشركة بمنح مكافأة كبيرة.

وبعد أسبوعين وصل إلى البوليس خطاب غير مختوم تقريبًا عرفوا منه أنه السرقة وقعت تحت إشراف أرسين لوبين، وأن السجادة سترسل فى طرد إلى أمريكا الشمالية، وفى نفس الليلة عثروا على السجادة فى حقيبة مودعة بمكتب أمانات محطة سالازار.

وهكذا فشلت السرقة، وأحس لوبين بالاستياء بحيث أودع كل غضبه فى رسالة أرسلها للكولونيل سبارمييتو يقول له فيها: إننى كنت من الرقة وحسن الذوق بحيث لم أشأ أن آخذ غير سجادة واحدة، ولكننى سآخذ الاثنتى عشرة كلها فى المرة القادمة، ولقد أعذر من أنذر، ولك تحياتى.

كان الكولونيل سبارمييتو يقيم منذ بضعة شهور فى بيت يقع فى آخر حديقة على ناصية شارع فيزاندرى ودوفرينوى، وكان رجلا قويا عريض الكتفين، أسود الشعر، أسمر البشرة، بسيط فى أناقته.

تزوج امرأة إنجليزية فائقة الجمال، ولكنها رقيقة الصحة أثرت فيها سرقة السجادة تأثيرًا كبيرًا، ومنذ أول يوم توسلت إلى زوجها أن يبيعها كلها بأى ثمن، ولكن الكولونيل كان قوى الإرادة، صلب الرأى، فلم يقبل أن يستسلم لنزوة امرأة، كما يقول، ولم يبع شيئًا، وإنما بالغ فى أخذ

الاحتياطات، وأحاط نفسه بوسائل يتعذر معها سرقة أى شىء.

مد جميع نوافذ الطابقين الأرضى والأول التى تطل على شارع دوفرينوى وذلك حتى لا يتعين عليه مراقبة شىء آخر غير واجهة البيت التى تطل على الحديقة.

ثم طلب من شركة خاصة بتأمين البيوت أن تقوم بحماية بيته، فزودت جميع نوافذ القاعة التى علقت فيها السجاجيد بأجهزة إنذار خاصة، غير ظاهرة، كان هو وحده يعرف مكانها، وتضىء أنوار البيت كله بمجرد لمسها، وتصدر رنينًا ودويًّا لا ينقطعان.

ثم إن شركات التأمين التى لجأ إليها لم تقبل التأمين على سجاجيده إلا إذا أقام لديه فى الطابق الأرضى ثلاثة رجال من قبلها على أن يدفع أجورهم، واختارت لذلك ثلاثة من مفتش البوليس القدامى المحنكين والأمناء، يحقدون على لوبين كل الحقد.

أما الخدم فكان الكولونيل يعرفهم منذ وقت طويل وقد ضمنهم وبعد اتخاذ كل هذه الإجراءات، وبعد أن زود البيت بأجهزة دفاع كما لو كان حصنًا، أقام الكولونيل حفلة استقبال كبيرة لعرض مقتنياته دعا إليها أعضاء الناديين اللذين ينتمى إليهما وعددًا من النساء والصحفيين وهواة جمع التحف والنقاد الفنيين، وما أن اجتاز كل من المدعوين

باب الحديقة حتى خيل إليه أنه يدخل سجنًا.

فقد وقف المفتشون الثلاثة عند أسفل السلم وراحوا يطلبون بطاقة لدعوة من كل منهم وينظرون إليه بعين فاحصة مستريبة، حتى أنه كان يخيل إليه أنهم قد يطلبون تفتيشه أو أخذ بصمات أصابعه.

ووقف الكولونيل فى الطابق الأول يستقبل مدعويه ويعتذر إليهم وهو يضحك وقد أسعده أن يشرح لهم الإجراءات التى تصورها لتأمين سجاجيده.

ووقفت زوجته بجواره، رقيقة، بشبابها وظرفها، شقراء، شاحبة، غضة، على ملامحها سمة من الحزن والدعة، وهى سمة استسلام الأشخاص الذين يهددهم القدر.

وعندما اجتمع كل المدعوين، أغلقوا باب الحديقة وأبواب الردهة ثم انتقلوا إلى القاعة الرئيسية عبر أبواب مزدوجة مصفحة وزودت نوافذها العالية بقضبان من الحديد.. فى تلك القاعة كانت السجاجيد الاثنتى عشرة.

تحفًا فنية رائعة لا مثيل لها مستوحاة من نسيج بايو الذى ينسب إلى الملكة ماتيلده، تمثل قصة غزو إنجلترا، صنعت فى القرن السادس عشر بناء على طلب قائد من قواد الجيش كان يرافق غليوم الفاتح، ونسجها

جان جوسيه، نساج آراسى الشهير، وتم العثور عليها بعد خمسمائة سنة فى بيت قديم ببرتيانى، وإذا عرف الكولونيل بأمرها اشتراها كلها بخمسين ألف فرنك فى حين أنها تساوى هذا المبلغ عشرين مرة.

ولكن أجمل تلك السجاجيد الاثنتى عشرة هى بالذات السجادة التى سبق أن سرقها أرسين لوبين، والتى استطاعوا استعادتها، كانت تصور أديت العنقاء وهى تبحث بين موتى هاستنجز عن جثة حبيبها هارولد، آخر ملوك الساكسون.

وقف المدعوون أمام هذه اللوحة يبدون إعجابهم الفائق بجمالها وبألوانها الباهتة وبتجميع الأشخاص الكامل البالغ الذى يوحيه المنظر.. وصورة أديت العنقاء، الملكة المسكينة المثنية كزهرة الزئبق الثقيلة.

كان ثوبها الأبيض ينم عن جسدها الضعيف، ويداها الطويلتان الرقيقتان تمتدان فى حركة هلع وتوسل، ولم يكن هناك ما هو أكثر حزنا من جانب وجهها الذى تعلوه أكثر الابتسامات حزنًا وأشدها يأسًا.

وقال أحد النقاد، وكانوا يستمعون إليه فى احترام: ابتسامة مؤثرة.. ابتسامة حاملة بالفتنة مع ذلك، تجعلنى أفكر يا كولونيل فى مدام سبارميينتو.

وبدت الملاحظة حقيقية، وعاد يقول فى إصرار، وهناك نقاط تشابه أخرى استرعت انتباهى على الفور، وهى انحناءة العنق ورقة اليدين..

وكذلك شيء آخر فى المظهر.. وفى الهيئة المألوفة.

اعترف الكولونيل قائلا: هذا صحيح تمامًا إلى حد أن هذا التشابه هو الذى حملنى على شراء السجادة، ثم إن هناك سببًا آخر، وهو أن من الصدف الغريبة حقا أن زوجتى تدعى أديت بالذات.. وقد سميتها منذ أن اشتريت السجادة باريت العنقاء.

وأردف الكولونيل وهو يضحك: وأتمنى أن يتوقف التشابه عند هذا الحد وأن لا تضطر عزيزتى أديت إلى أن تبحث عن جثة حبيبها كما تفعل صاحبة اللوحة، فأنا حى أرزق وليست بى أية رغبة فى أن أموت، ولن يقع ذلك إلا إذا حدث واختفت اللوحات فإننى لا أضمن ما قد يدور فى ذهنى عندئذ.

وضحك وهو ينطق بكلماته الأخيرة، ولكن ضحكته لم تجد لها صدى، وفى الأيام التى تلت، وفى كل الروايات التى قيلت بصدد تلك الحفلة تخللها نفس الضيق والصمت، فلم يعرف المدعوون ماذا يقولون.

وأراد أحدهم أن يمزح فقال: أيكون اسمك هارولد يا كولونيل.

أجاب فى مرح ظاهر: كل ليس اسمى هارولد، ثم إننى لا أشبه أبدًا الملك الساكسونى.

وقد اتفق الجميع بعد ذلك على التأكيد بأنه، فى اللحظة التى فرغ

فيها الكولونيل من عبارته تلك صدر من إحدى النوافذ رنين حاد.

ولكن اختلف الجميع فمن قائل إن الصوت صوت من النافذة التى إلى اليمين، ومن قائل إنه صدر من النافذة التى إلى اليسار، وقد أعقب ذلك الرنين صرخة فزع أطلقتها مدام سبارمييتو، وهى تتشبث بذراع زوجها، فقال: ما هذا.. ما معنى هذا؟

تجمد المدعوون فى أماكنهم، وراحوا ينظرون إلى النافذتين.

وعاد الكولونيل يقول:

– ما معنى هذا؟.. إننى لا أفهم شيئًا.. لا أحد فيهم يعرف مكان هذا الجرس.

وفى نفس اللحظة، وقد أجمع الجميع على ذلك أيضا، فى نفس اللحظة ساد الظلام التام وعلى الفور، ومن أعلا البيت إلى أسفله، وفى كل الغرف، وفى كل القاعات ومن كل النوافذ، انطلق الدوى من كل الأجراس.

وساد الهرج والمرج بضع ثوان، وعم الذعر الجنونى، صرخت النساء، وراح الرجال يدقون على الأبواب الموصدة بأيديهم فى جنون، وأخذوا يتدافعون بالمناكب، ووقعوا فوق بعضهم البعض.

وكان الذعر أشبه بذلك الذى يحدث عند اندلاع حريق لا يبقى ولا يذر أو انفجار قنبلة، وصاح الكولونيل وغطى بصوته على كل

شيء، وهو يقول:

– اصمتوا.. لا تتحركوا.. إننى كفيل بكل شيء.. إن مفتاح النور هنا.. فى الركن.. ها هو.

وشق طريقه فعلا بين المدعوين، وبلغ ركن القاعة، وفجأة سطع النور الكهربائى من جديد، وتوقف دوى الأجراس على الفور.

وعندئذ وفى النور الساطع بدأ منظر غريب، فقد أغمى على سيدتين، وكانت مدام سبارمبينتو متشبثة بذراع زوجها وتبدو كالميتة، أما الرجال فقد بدلهم الروع وتشوشت ثيابهم لفرط ما عم من فوضى وارتباك.

وصاح أحدهم: إن السجادات موجودة.

وكانت الدهشة بالغة، كما لو أن اختفاء تلك السجادات كان يجب أن يكون النتيجة الوحيدة المعقولة لتفسير ما حدث.

ولكن لم يتحرك شيء، وحتى بعض اللوحات النفيسة كانت لا تزال مكانها، ورغم أن الضجة ملأت البيت كله ورغم أن دوى الأجراس كان فى كل مكان فإن المفتشين الثلاثة لم يروا أحدًا يدخل أو يحاول الدخول.

وقال الكولونيل: وعلى كل حال فإن نوافذ هذه القاعة وحدها هى المزودة بجهازات الإنذار، وأنا وحدى أعرف طريقة تشغيلها.

وضحكوا كثيرًا من تلك الغارة الكاذبة، ولكنهم ضحكوا دون اقتناع، وفى شىء من الخجل، إذا أحس كل واحد بسخافة تصرفه، وساد بينهم جو من القلق والانزعاج.

ومع ذلك فقد مكث صحفيان، انضم إليهما الكولونيل بعد أن عنى بأديت وعهد بها إلى بعض الخادمات، وقاموا ثلاثتهم، مع المفتشين ببحث دقيق لم يسفر عن شىء، ثم جاء الكولونيل بزجاجة شمبانيا.

ونتيجة لذلك لم يغادر الصحفيان البيت إلا فى ساعة متأخرة، فى نحو الثالثة إلا ربع، وأوى الكولونيل إلى غرفته، وعاد المفتشون إلى غرفتهم التى خصصت لهم فى الطابق الأرضى.

وتناوب الثلاثة الحراسة، كل بدوره، وهى حراسة تقوم على بقائه ساهرًا ثم القيام بجولة فى الحديقة ويصعد إلى القاعة.

قاموا بهذا العمل بدقة تامة، فيما عدا بين الساعة الخامسة حتى السابعة صباحًا، فقد غلبهم النوم ولم يقوموا بجولاتهم، ولكن النهار كان قد لمع فى الخارج، ثم إن الأجراس ظلت صامتة، فلماذا يظلون ساهرين؟

ومع ذلك، ففى الساعة السابعة والدقيقة العشرين، عندما فتح أحدهم باب القاعة والنوافذ تحقق من اختفاء الاثنتى عشرة سجادة.

***

بعد ذلك أنبت الجهات العليا ذلك الرجل وزميليه لأنهم لم يبلغوا الأمر على الفور، ولأنهم بدأوا الأبحاث قبل أن يخبروا الكولونيل أو إدارة البوليس، ولكن ما كان لهذا التأخير، وله عذره، ليعرقل سير التحقيق.

ومهما يكن فلم يعلم الكولونيل بالحادث إلا فى الساعة الثامنة والنصف فحسب، وكان مرتديًا كل ثيابه ويستعد للخروج، وبدا كأن الخبر لم يؤثر فيه على الإطلاق، أو على الأقل، أفلح فى التغلب على انفعالاته، ولكن لا ريب أن الجهد كان كبيرًا جدًا لأنه تهالك فجأة فوق مقعد، واستسلم بضع لحظات لصورة حقيقية من اليأس.

وكان يأسًا شديدًا، إذا نظرنا إلى ذلك الرجل المعروف بالحزم والنشاط.

واسترد نفسه وتغلب على يأسه، ومضى إلى القاعة، ونظر إلى الجدران العارية ثم جلس أمام منضدة وسطر رسالة سريعة وضعها فى ظرف وختمه وقال: خذ هذا.. إننى على عجل من أمرى.. موعد فى غاية الأهمية.. هذه الرسالة لمدير البوليس.

وإذا حدجة المفتشون قال: هذا مجرد إحساس أنقله لمدير البوليس.. مجرد اشتباه خطر ببالى.. فليتحقق منه، ومن ناحيتى سأبدأ ببحث سريع.

وانصرف وهو يجرى بحركات تذكر المفتشون فيما بعد أنها كانت تنم عن الارتباك والاضطراب.

وبعد بضع دقائق، أقبل مدير البوليس، فأعطوه الرسالة، كانت تضم هذه الكلمات: (فلتغفر لى زوجتى الحبيبة الألم الذى سأسببه لها.. حتى اللحظة الأخيرة سيكون اسمها على لسانى.

وهكذا، بعد لحظة جنون، وبعد ليلة عانى فيها من الضغط العصبى تسبب له فى نوع من الحمى، أسرع الكولونيل لكى ينتحر.

فهل تواتيه الشجاعة على الإقدام على مثل هذا العمل أم يتردد فى آخر لحظة.

أخبروا مدام سبارمبينتو، وانتظرت نتيجة أبحاثهم للعثور على أثر الكولونيل وهى تلهث من الفزع.

وفى آخر الأصيل جاءت مكالمة من مدينة فيل دافرى، فعند خروج الموظفين من النفق، بعد مرور القطار، عثروا على جثة ممزقة تمزيقًا بشعًا، ولم يعد للوجه أية صورة بشرية، ولم يكن بجيوبها أية أوراق ولكن الأوصاف تطابقت مع أوصاف الكولونيل.

وفى الساعة السابعة مساء هبطت مدام سبارمبينتو فى فيل دافرى، واقتيدت إلى إحدى غرف المحطة، وعندما رفعوا الغطاء الذى يغطى الجثة تعرفت أديت العنقاء على جثة زوجها.

وفى هذه المناسبة لم تكن الصحافة فى صف لوبين كما كانت العادة دائمًا.

وكتب أحد الكتاب الساخرين ملخصًا رأى الجمهور فقال:

فليأخذ حذره، فلو أن مثل هذه المغامرة تحدث مرة أخرى فسيفقد ما أولينا من عطف حتى الآن، ولوبين ليس مقبولا إلا ما وقعت نذالاته على كبار رجال المال، والشركات المالية والمساهمة وما لم يقتل على الخصوص، أن يمارس السرقة فليكن، أما أن يرتكب جريمة قتل فلا، وهو إذا لم يكن قد قتل فهو مسئول على الأقل عن موت الكولونيل، إنه تسبب فى إراقة الدماء.

وازداد غضب الجمهور وحقده بسبب رثائه لأديت، المخلوقة الوديعة المعتلة الصحة، وتكلم مدعو الأمس، وعرف الجميع تفاصيل ما حدث عندئذ، وأحاطت بالإنجليزية هالة أسطورية استعيرت من الفاجعة المأساوية التى وقعت للملكة أديت العنقاء.

ومع ذلك فلم يستطع أحد إنكار إعجابه بالطريقة البارعة التى نفذت بها السرقة، وقد شرح البوليس على الفور كيفية تنفيذها.

فقد تحقق المفتشون الثلاثة منذ البداية (وأكدوا ذلك فيما بعد) أن إحدى نوافذ القاعة الثلاثة كانت مفتوحة على مصراعيها، فكيف يكون هناك شك فى أن لوبين وأعوانه لم يدخلوا من هذه النافذة.

كانت النظرية معقولة جدًّا، ولكن كيف استطاعوا، أولا: اجتياز

باب الحديقة، وثانيًا: عبور الحديقة ووضع سلم فوق الأرض دون ترك أية آثار، ثالثًا: فتح مصراعى النافذة دون أن تنطلق أجراس الإنذار، ودون أن تضاء أنوار القصر.

أما الجمهور فقد اتهم المفتشين الثلاثة، وقد استجوبهم قاضى التحقيق كثيرًا، وتحرى عن حياتهم الخاصة، وتقصى ماضيهم، وأعلن بما لا يقبل الشك بأنهم فوق الشبهات.

أما السجاجيد فلم يعد هناك ما يدل على أنهم سيعثرون عليها.

فى ذلك الوقت عاد المفتش جانيمار من الهند بعد فراغه من التحقيق فى إحدى القضايا التى استدعى انتقاله إلى هناك، ولما علم أن لوبين هو الذى سرق السجادات طلب من رؤساءه أجازة لمدة خمسة عشر يوما، وتقدم إلى مدام سبارمبينتو ووعدها بأن ينتقم لزوجها.

ولكن أديت كانت قد بلغت تلك الرحلة حيث لا تخفف فكرة الانتقام الحزن واللوعة اللذين يعصفان بها، فطردت فى مساء يوم الدفن بالذات المفتشين الثلاثة واستبدلتهم بخادم واحد وامرأة متقدمة فى السن لكى تقوم بشئون البيت، وهما خادمان كانا يعيدان الماضى إلى ذاكرتها بكل قسوة، ولهذا انفردت فى غرفتها، لا تبالى بأى شىء، وتركت جانيمار يتصرف كما يحلو له.

وجعل المفتش إقامته فى الطابق الأرضى، وطفق يقوم، على الفور، بأبحاث دقيقة، وبدأ التحقيق من البداية، واستعلم فى الحى ودرس موضع البيت وأطلق أجهزة الإنذار عشرين، بل ثلاثين مرة.

وبعد خمسة عشر يوما طلب إطالة مدة أجازته، وأقبل رئيس البوليس وكان يومئذ مسيو ديدوا، لزيارته، وفاجأه واقفا فى أعلى السلم بالقاعة.

فى ذلك اليوم اعترف المفتش العام بعدم جدوى أبحاثه.

ولكن فى غداة اليوم التالى، مر مسيو ديدوا من هناك ورأى جانيمار مشغول البال وقد بسط بعض الجرائد أمامه، وإذ ضيق عليه رئيس البوليس بالأسئلة قال له:

– لا أدرى يا سيدى الرئيس.. لا أدرى أبدًا ولكن هناك فكرة تؤرقنى.. غير أنها فكرة جنونية للغاية.. ثم إنها لا تفسر شىء، بل على العكس تزيد الأمور تعقيدًا.

– وإذن؟

– إذن أتوسل إليك أيها الرئيس أن تتجمل بالصبر قليلا وتدعنى أعمل، ولكن إذا اتصلت بك فجأة فيجب أن تستقل أول سيارة وأن لا تضييع دقيقة واحدة.. ذلك أنى قد أكون اهتديت إلى السر.

ومرت ثمان وأربعون ساعة أخرى، وتلقى مسيو ديدوا رسالة صغيرة: (إننى مسافر إلى مدينة ليل).

جانيمار.

وقال رئيس البوليس: ما الذى دعاك إلى المضى هناك بحق الشيطان؟

ومضى اليوم بدون أنباء ثم يوم آخر.

ولكن مسيو ديدوا كان يثق بالمفتش، وكان يعرفه جيدًا، ويعرف أنه ليس من هؤلاء الذين يتحمسون دون سبب ظاهر، وإذا كان قد سافر إلى ليل فلابد أن هناك أسبابًا وجيهة دعته إلى السفر.

والواقع أنه فى مساء اليوم الثانى جاءته مكالمة:

- أهذا أنت أيها الرئيس؟

- أهذا أنت يا جانيمار؟

كان كل منهما شديد الحرص، وتأكد كل منهما من الآخر، وإذ اطمأن جانيمار أسرع يقول:

- عشرة رجال أيها الرئيس، وأرجوك أن تكون أنت نفسك معهم.

- أين أنت؟

- فى البيت، بالطابق الأرضى، ولكننى أنتظرك خلف باب الحديقة.

– أنا قادم، فى السيارة طبعًا.

– نعم أيها الرئيس، وأوقف السيارة على بعد مائة قدم، وسأسرع أنا إليك بمجرد أن أسمع صفيرك.

وتمت الأمور طبقًا لتعليمات جانيمار، وبعد منتصف الليل بقليل وإذا رأى أنوار الطوابق العليا مطفأة تسلل إلى الشارع وأسرع للقاء مسيو ديدوا، ودار بينهما حديث قصير، وأطاع رجال الشرطة أوامر جانيمار، ثم مضى هو والرئيس واجتازوا الحديقة فى سكون وانفراد وحدهما فى حرص شديد، وقال ديدوا:

– حسنًا ما معنى كل هذا؟ كأننا نتآمر حتمًا.

ولكن جانيمار لم يضحك، لم يره مسيو ديدوا منفعلا هكذا أبدًا، ولم يسمعه يتكلم بمثل هذا الاهتياج.

– هل من جديد يا جانيمار؟

– نعم، أيها الرئيس، ولكننى لا أكاد أصدق هذه المرة ومع ذلك فأنا لم أخطئ، فقد عرفت كل الحقيقة، ورغم أنها تبدو غير معقولة إلا أنها حقيقية.. حقيقية تمامًا.. ولا يمكن إلا أن تكون كذلك.

وجفف قطرات العرق الذى يتصبب من جبينه، وإذ سأله مسيو ديدوا، جرع قدحًا من الماء ثم قال:

– إن لوبين خدعنى كثيرًا.

قال مسيو ديدوا: هل لك أن تمضى إلى الغاية رأسًا، ما الخبر فى كلمتين اثنتين؟

أجاب جانيمار معترضًا: كلا أيها الرئيس، يجب أن تعرف المراحل المختلفة التى مررت بها، وأرجو المعذرة، ولكننى أعتقد أن هذا ضرورى.

وعاد يقول: كنت أقول إن لوبين خدعنى كثيرًا، وأذاقنى من العذاب، ولكن فى ذلك النضال الذى غلبنى فيه حتى اليوم، عرفت على الأقل طريقته فى العمل، وفيما يتعلق بقضية السجاجيد فقد ألقيت على نفسى سؤالين على الفور.

أولا: إن لوبين لا يقدم على شىء فريدًا دون أن يتأكد من نتيجته، وكان يجب أن يعلم أن انتحار الكولونيل سبارمييتو ستكون نتيجته محتملة لاختفاء السجاجيد، ومع ذلك وعلى الرغم من أن لوبين يكره الدم فإنه سرق السجاجيد مع ذلك.

قال مسيو ديدوا: أغرته قيمتها التى تربو على السبعمائة أو الثمانمائة ألف فرنك.

– كلا أيها الرئيس، أعود فأقول لك إنه مهما تكن الفرصة، فلا شىء فى العالم، ولا حتى من أجل ملايين وملايين، فلا يقتل لوبين ولا

يريد حتى أن يتسبب فى الموت، هذه أول نقطة.

وثانيًا: لماذا تلك الضجة مساء اليوم السابق، أثناء الحفلة.. لإلقاء الذعر فى النفوس فحسب، ولكى يخلق حول المسألة، وفى بضع دقائق جوًّا من القلق والرعب، وأخيرًا لكى يحرك الشكوك عن حقيقة قد يشتبه فيها أحد بدون شك، ألا تفهم؟

- كلا بالطبع.

قال جانيمار: الواقع أن الأمر غير واضح، وأنا بالذات، وأنا أفكر فى هذه النقاط لم أكن أفهم شيئًا، ومع ذلك فقد كان لدى إحساس بأننى أسير فى الطريق الصحيح.. نعم، لم يكن هناك شك فى أن لوبين يريد أن يوجه الشكوك إليه حتى يبقى الشخص الذى يدير العملية غير معروف.

قال مسيو ديدوا: هل تعنى شريكًا؟.. شريف اختلط بالمدعوين، وأطلق أجهزة الإنذار، واستطاع أن يختبئ فى القصر بعد انصراف الجميع؟

- هو ذلك.. هو ذلك، من المؤكد أن السجاجيد لم تسرق إلا بواسطة شخص بقى فى القصر خلسة، ولكن من المؤكد أيضًا أننا إذا فحصنا قائمة المدعوين فربما.

- حسنًا؟

– ولكن هناك شيء آخر مؤكد هو أيضا، فإن المفتشين الثلاثة كانت معهم قائمة بأسماء المدعوين، وقد تحققوا أن ثلاثة وستين مدعوًّا دخلوا القصر وأن ثلاثة وستين قد غادروه وإذ..

– أحد الخدم؟

– كلا.

– المفتشون؟

– كلا.

قال الرئيس وقد نفد صبره: ومع ذلك، إذا كانت السرقة قد تمت من الداخل.

قال المفتش فى انفعال متزايد: هذه نقطة أكيدة، ولا يمكن التردد فيها، فكل أبحاثى قادتنى إلى هذه الوجهة، وشيئًا فشيئًا انتهيت إلى تبنى هذه الحقيقة المذهلة.

فمن الناحية النظرية، ومن الناحية المسلم بها لا يمكن أن تكون السرقة قد نفذت إلا من شريك مقيم فى البيت، ولكن ليس هناك شريك.

قال مسيو ديدوا: ما هذا الهراء؟

– الآن كما تقول حقًّا، ولكن فى نفس اللحظة التى نطقت فيها.

بذلك الهراء تجلت لى الحقيقة.

– ماذا تقول؟

– أوه.. هى حقيقة مبهمة وغير مكتملة، ولكنها كانت من الكفاية بحيث جعلتنى أسير فى تحقيقى إلى النهاية، هل تفهمنى أيها الرئيس.

لزم مسيو ديدوا الصمت، ولا ريب أن نفس الحقيقة تجلت له عندئذ هو الآخر لأنه تمتم يقول: إذا لم يكن السارق من المدعوين ولا من الخدم ولا من المفتشين، فلا يبقى إلا.

– نعم أيها الرئيس.. لا يبقى إلا شخص واحد.

ارتجف مسيو ديدوا كما لو أنه تلقى ضربة شديدة، وقال فى صوت ينم عن انفعاله:

– كلا، إن هذا غير معقول.

– لماذا؟

– لماذا؟.. فكر جيدًا فى الأمر.

– ولكن، امض فى تفكيرك أيها الرئيس.. وتكلم.

– ماذا؟. كلا، هذا محال. لا يمكن أن يكون سبارمييتو شريكًا للوبين.

ضحك جانيمار مستهزئًا، وقال: تمامًا.. شريك لأرسين لوبين.

ولهذا يتضح كل شيء، فأثناء الليل، وبينما المفتشون الثلاثة يسهرون فى الطابق الأرضى، أو بالأحرى، بينما كانوا نائمين، لأن الكولونيل سبارمييتو ربما دس لهم مخدرًا فى الشمبانيا، أقول إن الكولونيل أنزل السجاجيد ونقلها إلى الخارج من غرفته، وهى تقع كما تعلم فى الطابق الثانى وتطل على شارع آخر لم يكن يخضع لأية رقابة أو أية حراسة، مادامت نوافذ الطابقين الأرضى والأول قد سدت.

فكر مسيو ديدوا ثم هز كتفيه وقال: هذا محال.

لماذا؟

لأن الكولونيل سبارمييتو ما كان ينتحر لو أنه كان شريكًا للوبين.. خصوصًا بعد أن نجحت السرقة.

ومن يقول إنه انتحر؟

كيف؟.. ألم يجدوا جثته؟

أعود فأقول لك إن لوبين لا يمكن أن يتسبب فى موت أحد.

ومع ذلك فقد مات سبارمييتو، وتعرفت زوجته على جثته.

كنت أتوقع منك أن تقول هذا أيها الرئيس، أنا الآخر أزعجنى هذا الأمر جدًّا، لأننى رأيت أرسين لوبين أولاً ثم شريكه الكولونيل

سبارمبينتو ثانيًا، وجثة ثالثًا، وكان هذا كثيرًا بالنسبة لى.

وأمسك جانيمار ببعض الجرائد وناول إحداها لمسيو ديدوا.

وهو يقول: لعلك تتذكر أننى كنت أتصفح بعض الجرائد عندما قدمت أول مرة.. كنت أبحث إذا لم يكن قد وقع حادث يمكن أن يكون له علاقة بقصتنا هذه، ويؤكد نظريتى، فتكرم واقرأ هذا النبأ.

(أبلغنا مراسلنا بحادث غريب، وقع فى مدينة ليل، فقد اختفت صباح أمس من معرض الجثث فى تلك المدينة جثة رجل مجهول ألقى بنفسه تحت عجلات الترام، ولا يعرف أحد سبب هذا الاختفاء الغريب).

راح مسيو ديدوا يفكر ثم قال: إذن؟،.. ماذا تعتقد؟

أجاب جانيمار: إننى قدمت من ليل، والتحقيق الذى قمت به لا يرقى إليه أى شك من هذه الناحية، اختفت الجثة فى نفس الليلة التى أقام فيها الكولونيل سبارمبينتو حفلته، ونقلت فى سيارة إلى فيل دافرى مباشرة، وبقيت بجوار شريط السكة الحديد حتى المساء.

قال مسيو ديدوا: بالقرب من النفق؟

أجل أيها الرئيس.

بحيث إن الجثة التى عثروا عليها هى تلك الجثة، وقد ألبست ثياب

الكولونيل سبارمييتو؟

تمامًا.

ولكن لماذا كل تلك الأحداث إذن؟ لماذا يسرق سجادة فى البداية ثم يعيدها، ثم يسرق السجاجيد الاثنتى عشرة بعد ذلك؟.

ولماذا تلك الحفلة؟ وتلك الضجة؟ وكل شىء؟ إن قصتك غير متماسكة يا جانيمار.

إنها غير متماسكة لأنك توقفت مثلى فى منتصف الطريق من فرط غرابتها، ومع ذلك فقد كان لابد لى من الذهاب بعيدًا، بعيدًا نحو غير المعقول، والمذهل، ومهما يكن فلم لا؟ أفلا يتعلق الأمر بأرسين لوبين؟ ألا يجب أن نتوقع منه كل ما هو غريب وشاذ؟.. ألا يجب أن نواجه أكثر النظريات جنونا، وعندما أقول أكثرها جنونًا فليست الكلمة صحيحة.. وكل ذلك، على العكس منطقى وبسيط جدًّا.. شركاء.. ولماذا؟.. مادام من الأسهل والطبيعى أن يتصرف بنفسه شخصيًّا، بيديه هو بالذات، وبوسائله فحسب.

صاح مسيو ديدوا فى ذعر كان يتزايد مع كل لحظة: ماذا تقول؟.. ماذا تقول؟

ضحك جانيمار مستهزئًا مرة أخرى وقال: إن الأمر يذهلك أيها

الرئيس.. كما حدث معى تمامًا كنت مخبولاً من فرط الدهشة، ومع ذلك فقد مضيت فيها إلى النهاية.. فإننى أعرف لوبين، وأعرف ما يمكن أن يكون جديرًا به.

وعاد مسيو ديدوا يقول: هذا مستحيل.. مستحيل.

بل على العكس ممكن أيها الرئيس، ومنطقى تمامًا، وواضح كل الوضوح أنه تجسيد بسيط لرجل واحد، وأن طفلا ليحل طلاسم هذه القضية فى دقيقة باستبعاد بسيط، لنستبعد جثة الميت فيبقى أمامنا سبارمييتو ولوبين.. ولنستبعد سبارمييتو.

تمتم رئيس البوليس: فيبقى أرسين لوبين.

نعم، يبقى لوبين وحده، لوبين وقد عاد من بين الأموات.. لوبين الذى تحول قبل ذلك بستة شهور إلى الكولونيل سبارمييتو.

وأثناء وجوده فى بريتانى يعلم بنبأ العثور على الاثنتى عشرة سجادة فيشتريها، ثم يدبر سرقة أجمل واحدة منها لإلفات النظر إليه، ولكى يبعد عنه الأنظار يدبر سبارمييتو تلك الحفلة بصورة مروعة ويروع مدعويه، وعندما يتم الإعداد لكل ما يريد يبدأ العمل ويسرق باسم لوبين ويختفى سبارمييتو، ضحية لوبين، ويموت من غير أن ترقى إليه الشبهات، ومن غير أن يشك فيه أحد، تاركا خلفه زوجة لكى تجنى

مكاسب العملية.

وهنا أمسك جانيار عن الكلام، ونظر إلى رئيسه كأنه يسترعى انتباهه لأهمية ما سوف يقوم ثم استطرد: تاركا خلفه أرملة شديدة الحزن.

مدام سبارميينتو؟.. هل تعتقد حقا؟.

قال لوبين: إن لوبين لا يدبر عملية كهذه دون أن يكون فى نهايتها.. مكاسب كبيرة.

ولكن يبدو لى أن المكاسب كان يمكن تحقيقها ببيع السجاجيد.. فى أمريكا أو فى أى بلد آخر.

هذا صحيح، ولكن سبارميينتو كان يمكنه أن يبيعها بنفسه وإذن فهناك شىء آخر.

شىء آخر؟

نعم، أيها الرئيس، فلا تنس أن الكولونيل سبارميينتو كان ضحية سرقة كبيرة، وأنه إذا كان قد مات فإن أرملته على قيد الحياة.. وأرملته هى التى ستقبض إذن.

تقبض ماذا؟

ماذا؟ ما تستحقه طبعًا.. قيمة التأمين.

دهش مسيو ديدوا، بدت له القضية فجأة بكل ما فيها من معنى حقيقى، وقال: هذا صحيح.. هذا صحيح.. فقد أمن الكولونيل على سجاجيده.

طبعًا.. وبمبلغ كبير.

كم؟

ثمانمائة ألف فرنك.. موزعة على خمس شركات مختلفة.

وهل حصلت مدام سبارمييتو على كل هذه المبالغ؟

إنها حصلت على مائة وخمسين ألف فرنك أمس ومائتى ألف فرنك اليوم، أثناء غيابي، وأما المبالغ الأخرى فيجب أن تحصلها خلال هذا الأسبوع.

ولكن هذا فظيع.. كان يجب.

ماذا أيها الرئيس، إنهما انتهزا فرصة غيابى لتحصيل هذه المبالغ، وعند عودتى التقيت فجأة بمدير إحدى شركات التأمين، أعرفه منذ مدة طويلة، وبحديث معه عرفت الأمر.

لزم مدير البوليس الصمت لحظة طويلة وهو مشدوه، ثم قال:

يا له من رجل على كل حال!

هز جانيمار رأسه وقال: نعم، أيها الرئيس، إنه وغد، ولكن يجب أن أعترف بأنه رجل شديد المراس، فلكى تفلح خطته كان لابد من

أن يناضل أثناء أربعة أو خمسة أسابيع، وما كان لأحد أن يشتبه أبدًا فى الكولونيل سبارميينتو، كان يجب أن تتركز كل الأحقاد وكل الأبحاث على لوبين وحده، وأن نجد أنفسنا فى نهاية الأمر أمام أرملة محزونة وهى أديت العنقاء، فتاة الأسطورة، والمخلوقة الرقيقة التى يسعد رجال التأمين أن يضعوا بين يديها ما يخفف حزنها، وهذا ما حدث.

وكان الرجلان، كل منهما بجوار الآخر، ينظران إلى بعضهما البعض مليا، وقال الرئيس: ومن هى تلك المرأة؟

سونيا كريشنوف؟

سونيا كريشنوف؟

نعم، تلك الروسية التى اعتقلتها فى العام الماضى فى قضية التاج المسروق والتى ساعدها لوبين على الهرب.

هل أنت واثق؟

كل الثقة، وقد حيرنى لوبين إلى درجة أننى أهملت الاهتمام بها هى، ولكن، عندما عرفت الدور الذى تقوم به تذكرت أنها سونيا، وقد تنكرت فى صورة إنجليزية، سونيا التى لا تتردد فى مواجهة الموت فى سبيل لوبين.

وافقه مسيو ديدوا قائلا: إنه لصيد ثمين يا جانيمار.

بل لدى ما هو أفضل لتقديمه إليك.

وما هو؟

مرضعة لوبين العجوز.

فيكتوار؟

أنها هنا منذ أن قامت مدام سبارمييتو بدور الأرملة.. إنها الطاهية.

قال مسيو ديدوا: أوه.. أوه.. لك تهانئى يا جانيمار.

مازال لدى ما هو أفضل أيها الرئيس.

أجفل مسيو ديدوا، وكانت يد المفتش العام ترتعش فى يده.

ماذا تعنى يا جانيمار؟

أتظن أيها الرئيس أننى كنت أزعجك فى هذه الساعة لمثل هذا الصيد، سونيا وفيكتوار.. كان فى إمكانى أن أنتظر.

تمتم مسيو ديدوا وقد أدرك أخيرًا سبب اضطراب المفتش العام.

وإذن؟

ألم تخمن بعد أيها الرئيس؟

هل هو هنا؟

إنه هنا.

مختبئًا؟

أبدًا، وإنما متنكر فحسب.. إنه الخادم.

لم يبد مسيو ديدوا أية حركة هذه المرة، ولم ينطق، إن شجاعة لوبين أذهلته، وضحك جانيمار ساخرًا وقال:

لقد زاد الثالوث المقدس بشخص رابع، كان يمكن أن تقوم أديت العنقاء بأخطاء، وكان لابد من وجود الرئيس، وقد جرؤ وعاد، منذ ثلاثة أسابيع وهو يحضر تحقيقاتى، ويراقب تقدمها فى هدوء.

هل عرفته؟

لا أحد يعرف لوبين، إن له دراية تامة بفنون المكياج، ويتحول من شخصية إلى أخرى بحيث لا يمكن لأحد أن يعرفه، ثم إنه ما كان ليخطر لى أبدًا.. ولكن هذه الليلة، وبينما كنت أراقب سونيا وأنا مختبئ تحت السلم سمعت فيكتوار تخاطب الخادم وتدعوه (صغيرى) وسطع الضوء فى ذهنى على الفور فهى تدعو لوبين هكذا دائمًا.

بدا مسيو ديدوا وبلبل الخاطر دوره هو الآخر لوجود العدو الذى طالما طارده ولم يستطع إلقاء القبض عليه أبدًا، وقال فى صوت أصم:

إنه وقع فى أيدينا أخيرًا.. ولا يستطيع أن يهرب.

كلا يا سيدى.. إنه لن يستطيع، لا هو ولا المرأتان.

وأين هم؟

سونيا وفيكتوار فى الطابق الثانى أما لوبين ففى الطابق الثالث.

قال مسيو ديدوا وقد أحس بالقلق فجأة: ولكن، ألم يمرر من نوافذ تلك الغرف السجاجيد عندما اختفت؟

نعم.

إذا كان الأمر كذلك فيمكن للوبين أن يهرب منها أيضا، ما دامت هذه النوافذ تفضى إلى شارع دوفرينوى.

طبعًا أيها الرئيس، ولكننى اتخذت احتياطاتى، فبمجرد قدومك أرسلت أربعة من رجالنا تحت نافذة شارع دوفرينوى وأصدرت إليهم أوامر قاطعة، إطلاق الرصاص على أى أحد يظهر فى النوافذ ويحاول الهرب، الرصاصة الأولى فى الهواء، والثانية فى الصميم.

إذن فقد فكرت فى كل شىء يا جانيمار، وما أن يطلع النهار.

وهل يجب أن ننتظر أيها الرئيس؟ هل يجب مراعاة الأصول مع هؤلاء الأوغاد؟.. وماذا لو استطاع الهرب أثناء ذلك ماذا لو لجأ إلى إحدى ألاعيبه التى لا نعرفها، كلا، إنه وقع فى أيدينا، ولابد أن نعتقله

الآن فورًا.

وخرج جانيمار وهو ساخط ونافد الصبر، واجتاز الحديقة وأدخل ستة من رجاله ثم عاد وقال: قضى الأمر أيها الرئيس، وقد أصدرت الأمر إلى الرجال الذين يراقبون شارع دوفرينوى بإشهار مسدساتهم وتصويبها نحو النافذة.

هيا بنا.

وكانت تلك التحركات قد أحدثت ضجة ما، لم تفت عن سكان البيت بالطبع، وأحس مسيو ديدوا بأنه لا مناص من أن يبدأ العمل فقال: هلم بنا.

وصعد الرجال الثمانية السلم ومسدساتهم فى أيديهم دون إبداء أى حرص فى لهفتهم على مفاجأة لوبين قبل أن يسعفه الوقت لتدبير دفاعه.

وصاح جانيمار وهو يندفع على باب الغرفة التى يقيم فيها مدام سبارمينتو: افتحوا.

ودفع أحد رجال الشرطة الباب وحطمه.

ولكنهم لم يجدوا أحدًا فى الغرفة، ولم يكن هناك أحد كذلك فى غرفة فيكتوار، وصاح جانيمار:

إنهما فوق، لقد انضممتا إلى لوبين فى غرفته فتوخوا الحذر.

وصعد الرجال الثمانية إلى الطابق الثالث وكم كانت دهشة جانيمار عندما وجد باب الغرفة مفتوحًا على مصراعيه والغرفة شاغرة.

وكانت جميع الغرف الأخرى شاغرة هى الأخرى فصاح:

يا للشيطان!.. أين ذهبوا؟

ولكن الرئيس ناداه، وكان قد هبط إلى الطابق الثانى ولاحظ أن إحدى النوافذ لم تكن محكمة الغلق وإنما مردودة فحسب، وقال يخاطبه:

ها هو الطريق الذى سلكوه.. نفس طريق السجاجيد، لقد قلت لك ذلك.. شارع دوفرينوى.

قال جانيمار وهو يتميز غضبًا: ولكن بالشارع حراسة.. ولو أنهم هربوا من هذا الطريق لأطلق رجالنا الرصاص عليهم.

ذلك أنهم هربوا قبل حراسة الشارع.

كان الثلاثة فى غرفهم عندما اتصلت بك بالتليفون.

هربوا بينما كنت تنتظرنى بجوار الحديقة.

ولكن كيف.. ولماذا؟.. لم يكن هناك أى سبب يحدوهم إلى الهرب اليوم بدلا من الغد أو بدلا من الأسبوع المقبل.. بعد أن يحصلوا جميع

المبالغ المؤمن عليها.

بل كان هناك سبب، عرفه جانيمار عندما رأى على إحدى المناضد رسالة باسمه، وعندما فضها وعرف مضمونها:

أنا الموقع أدناه، أرسين لوبين، اللص الشريف، والكولونيل سبارمييتو سابقا، والخادم سابقا، والجثة سابقا، أشهد بأن المدعو جانيمار أثبت أثناء إقامته فى هذا البيت بأنه يتمتع بأحسن المزايا، وسلوك سليم وبأنه مخلص ويقظ، وأنه أفسد جزءًا من خططى بدون مساعدة من أحد، وأنقذ شركات التأمين من دفع أربعمائة وخمسين ألف فرنك، وإننى أهنئه على ذلك، وألتمس له العذر طواعية لأنه لم يتوقع أن التليفون الموجود بالطابق الأرضى متصل بالتليفون الموجود فى غرفة سونيا كريشنوف، وأنه باتصاله برئيس البوليس اتصل بى فى نفس الوقت لكى أبادر بالفرار بأسرع ما يمكن، وهذه غلطة طفيفة لا يمكن أن تعتم بريق خدماته أو أن تقلل من قيمة انتصاره.

ولهذا أرجو أن يتفضل بقبول إعجابى الشديد بمقدرته.

وبخالص حبى ومودتى.

أرسين لوبين

سر المصباح

١

جلس شرلوك هولمز وواطسون، كل منهما على جانب من الموقد يستدفئان وكحال غليون هولمز قد انطفأ.

فأفرغ منه الرماد ثم حشاه ثانية وأشعله، وجمع حول ركبتيه طرفي الروب دي شامبر. وأخذ يطلق سحابات طويلة من الدخان نحو السقف.

وراح واطسون ينظر إليه كما ينظر الكلب الوفي إلى صاحبه. وهو يتساءل هل يقطع الأستاذ حبل الصمت ويعترف له بما يجول بخاطره من أفكار، وإذ رآه يلزم الصمت نهض واقترب من النافذة. وكان الشارع الحزين يمتد بين البيوت الكئيبة، تحت سماء يهطل منها مطر غزير وعنيف. ومرت مركبة، ثم أخرى، ولم يلبث أن صاح يقول:

– آه.. ها هو ساعي البريد.

وما هي إلا لحظة حتى دخل الساعي خلف الخادم وقال:

– رسالتان مسجلتان يا سيدي. هل لك أن توقع هنا.

وقع هولمز باستلام الرسالتين، وشيع الساعي حتى الباب، ثم عاد وهو يفض إحدى الرسالتين وقال وهو يخاطب واطسون:

– هذه الرسالة تأتينا بقضية هامة، كما كنت تريد، فاقرأ.

وقرأ واطسون ما يلي:

«سيدي

أرسل إليك هذه، أنشد معونتك، فقد رحت ضحية سرقة هامة، ولم تسفر الأبحاث التي قمنا بها حتى الآن عن أية نتيجة.

وأرسل إليك بنفس البريد بضع جرائد تناولت هذه القضية، فإذا شئت الاضطلاع بها فسأضع بيتي تحت تصرفك، وأرجوك أن تحدد بنفسك المبلغ الذي تراه كافيًا لنفقات سفرك.

وأرجو أن تتكرم بإبلاغي ببرقية، وإليك خالص تحياتي».

البارون فيكتور دامرفيل

١٨ شارع موريللو ٥٠

وقال هولمز. آه. هذا عظيم... رحلة إلى باريس... ولم لا؟... فمنذ نضالي المشهور مع أرسين لوبين لم تواتني الفرصة للعودة إليها وسوف

يروق لي أن أسافر إلى عاصمة الدنيا في ظروف أحسن.

ومزق الشيك إلى أربع قطع. وبينما كان واطسون يصف باريس بأقبح الصفات، خاصة وأن ذراعه كان لا يزال متوترًا ولم يعد بعد إلى ليونته العادية، فضم الرسالة الثانية، وما كاد يلقي عليها نظرة حتى بدرت منه كلمة سخط، وعبست أساريره، وطوح بها إلى الأرض بعد أن فركها في يده وكورها، فصاح واطسون مفزوعًا:

- ماذا.. ما الخبر؟

والتقط الرسالة المكورة، وبسطها وقواها والدهشة تستبد به:

"أستاذي العزيز: أنت تعرف مدى إعجابي واهتمامي بك، ولهذا أرجوك ألا تقبل المهمة التي يلتمسون مساعدتك فيها، ذلك لأن تدخلك سيتسبب في أضرار كبيرة، ولن تكون نتيجة الجهد الذي ستبذله إلا الفشل وستضطر أنت نفسك أن تجهر بفشلك علانية.

"وإني إذا أتمنى أن أجنبك هذه المهانة أتوسل إليك. باسم صداقتنا أن تلزم بيتك وأن تقبع بجوار النار في هدوء.

"تحياتي الخالصة لك أيها الأستاذ العزيز ولمستر واطسون.

أرسين لوبين"

هتف واطسون مشدوها: أرسين لوبين!

راح هولمز بقبضته على المنضدة وهو يقول:

– آه.. إن هذا الحيوان بدأ يضايقني، وهو يسخر مني، كما لو كنت طفلًا... أجهر بفشلي علانية.. ألم أرغمه على إعادة الماسة الزرقاء؟

قال واطسون: إنه يخاف.

– إنك أحمق... إن أرسين لوبين لا يخاف أبدا، والدليل على ذلك أنه يتحداني.

– ولكن كيف عرف بأمر الرسالة التي أرسلها إلينا البارون دامبرفيل؟

وأني لي أن أعلم.. إنك تلقي أسئلة حمقاء يا عزيزي.

خطر لي.. تصورت..

خطر لك أنني ساحر!

وكلا ولكنني رأيتك تأتي بمعجزات...

لا أحد يأتي بمعجزات.. لا أنا ولا غيري. إنني أفكر وأستنتج واستدل ولكنني لا أخمن، فلا يخمن إلا الأغبياء.

تظاهر واطسون بتواضع كلب مغلوب على أمره، وبذل جهده لكي لا يكون غبيًّا، ولكي لا يخمن لماذا راح هولمز يذرع أرض الغرفة جيئة وذهابا بخطوات كبيرة غاضبة. ولكن عندما دق هولمز الجرس

يستدعي خادمه وعندما أمره أن يعد حقيبته لم يسعه إلا أن يسأله.

هل أنت ذاهب إلى باريس يا هولمز؟

يحتمل.

وأنت ذاهب ردا على تحدي لوبين أكثر منه خدمة للبارون دامبرفيل

يحتمل

سأصحبك يا هولمز

توقف هولمز وقال: آه.... آه... ألا تخشى أن يصيب ذراعك اليسرى ما أصاب ذراعك اليمنى؟

– وماذا يمكن أن يقع لي وأنت معي؟

– حسنا، أنت شجاع، وسوف نثبت لذلك السيد أنه ربما أخطأ بتحديه لي بكل هذه الوقاحة. هيا يا واطسون لكي نلحق بأول قطار.

– ألن تنتظر الجرائد التي قال البارون أنه أرسلها إليك.

– وما الجدوى من ذلك؟.

– هل أرسل إليه برقية؟

– كلا، فإن لوبين سيعرف عندئذ أنني قادم، ولا أريده أن يعرف ذلك. يجب أن نتوخى كل الحرص هذه المرة.

هبط الصديقان في ميناء دوفر بعد ظهر اليوم نفسه. وكان الجو صحوا

أثناء الرحلة في القطار السريع من كاليه إلى باريس التي استغرقت ثلاث ساعات قضاها هولمز في نوم عميق. واستيقظ سعيدا ويقظا. فإن توقع صراع جديد مع أرسين لوبين جعله يشعر بمتعة غريبة. وراح يفرك يديه بفرحة رجل يستعد لكي ينهض من مسرات كثيرة.

وخرج من المحطة وكله نشاط، بعد أن ارتدى المعطف الذي يميزه. وكان الزحام شديدا، وقد راقه ذلك وقال:

– هذا أفضل يا واطسون، فلن نجازف بأن يعرفنا أحد وسط هذا الجمع من الناس.

ولكنه ما كاد يتقدم بضع خطوات حتى سمع من يقول له: مستر هولمز، أليس كذلك؟

توقف مشدوها بعض الشيء، فمن ذلك الشيطان الذي يشير إليه باسمه؟ ورأى بجواره امرأة شابة ترتدي ثوبا بسيطا مميزا، وجهها الجميل به مسحة من القلق والحزن. وعادت تقول:

– أنت مستر هولمز طبعا.

قال في صوت خشن: ماذا تريدين؟

– اصغ إلي يا سيدي. إن الأمر خطير جدا، وأنا أعرف أنك ذاهب إلى شارع موريللو.. رقم ١٨... ولكن لا يجب أن تمضي إليه.

أؤكد أنك سوف تندم على ذلك، ولا تظن أن لي أية مصلحة وإنما أتكلم بحق وبكل صراحة.

حاول أن يقصيها عن طريقه، ولكنها راحت تقول في إصرار:

– أرجوك يا سيدي. لا تكن صلب الرأي. آه، لو عرفت كيف أقنعك. انظر إلى عيني... إنهما ينطقان بالصراحة، ويقولان الحقيقة.

وقدمت إليه عينيها... عينين رزينتين، صافيتين كأنهما تعكسان روحها هي بالذات. وهز واطسون رأسه وقال: يبدو أن الآنسة صادقة.

قالت: بكل تأكيد، ويجب أن تثق بي.

– أورهما أسعدني إذن.. وصديقك أيضا، أليس كذلك؟ أوه.

إنني متأكدة. سيكون كل شيء على ما يرام. وأنها لفكرة جميلة تلك التي خطرت لي. اصغ إلي يا سيدي... هناك قطار سينطلق إلى كاليه بعد عشرين دقيقة.... سوف تستقله إذن... تعالى معي. الطريق من هنا. وليس أمامك الكثير من الوقت.

وحاولت أن تجر هولمز. ولكنه أمسكها من ذراعها، وقال في رفق بقدر ما استطاع: معذرة يا آنسة. لا يمكنني تلبية رغبتك، فإنني لا أتخلى أبدًا عن مهمة تناط بي.

– أتوسل إليك... أتوسل إليك.... آه، لو تستطيع أن تفهم بيد أنه

تجاوزها، وابتعد مسرعًا. وقال واطسون يخاطبها:

- تذرعي بالأمل. سيمضي حتى نهاية المهمة... وهو لم يعرف الفشل في حياته.

وراح يجري لكي يلحق بهولمز.

***

شرلوك هولمز وأرسين لوبين

ظهرت هذه الحروف الكبيرة، وقابلتهما عند أول خطواتهما، فقد سار عدد من الرجال، بعضهم خلف بعض وفي أيديهم عصى غليظة محددة راحوا يدقون ها على الأرض في رتابة، وعلى ظهورهم لافتات ضخمة هذا نصها بالترتيب: "مباراة بين شرلوك هولمز وأرسين لوبين. وصول البطل الإنجليزي.

المخبر السري الكبير للكشف عن غموض لغز شارع موريللو. اقرأ التفاصيل في جريدة ايكو دي فرانسي".

تقدم شرلوك إلى أحد هؤلاء الرجال وفي نيته أن يمسك تبلابيبه ويحطمه تحطيمًا هو واللوحة التي في يده. ولكن الجمهور كان قد تجمع حول هذه اللوحة فكظم غيظه وسأل الرجل قائلًا:

- متى طلبوا منك القيام بهذه العملية؟

- صباح اليوم.
- ومتى بدأت عملك؟
- منذ ساعة.
- وهل كانت اللوحات جاهزة.
- آه. نعم. عندما ذهبت هذا الصباح إلى الوكالة كانت جاهزة.

إذن توقع أرسين لوبين أن هولمز سيقبل الصراع، بل الأكثر من هذا، أن الخطاب الذي أرسله إليه يثبت أنه يتمنى هذا الصراع وأنه ينوي منازلته مرة أخرى، فلماذا، وأي سبب يدفعه إلى هذا النضال.

بدا التردد على هولمز لحظة. لابد حقًّا أن لوبين واثق من الفوز مادام قد أبدى مثل هذه الوقاحة. إن إسراعه في القدوم هكذا، عند أول نداء، يعني أنه قد وقع فعلًا في الفخ. ومع ذلك فقد هتف يقول في طفرة من النشاط: هلم بنا يا واطسون. أيها السائق. امض بنا إلى رقم ١٤، بشارع موريللو.

ووثب إلى المركبة وقد انتفخت عروقه. وانضمت قبضتاه، كما لو كان ماضيًا إلى حلبة الملاكمة.

***

وبشارع موريللو بنايات فخمة خاصة، تطل واجهاتها على حديقة مونسو، والبيت رقم ١٨ واحد من تلك المباني الجميلة، ويقيم فيه

البارون هو وزوجته وابنتاه، وقد أسسه وفرشه بأفخم نواع الأثاث، وبطريقة فنية تدل على ذوقه الرفيع وساعدته على ذلك ثروته الطائلة، لأنه يعتبر من أصحاب الملايين. ويتقدم البيت فناء فسيح، وتحف به من اليمين واليسار ملحقات الخدمة، وفي الخلف حديقة تشارك بأغصانها حديقة مونسو.

وبعد أن دقا الجرس، اجتاز الإنجليزيان الفناء واستقبلهما خادم تقدمهما إلى صالون صغير. وجلسا وألقيا نظرة فاحصة على الأشياء الثمينة التي بالمكان. وقال واطسون:

– أشياء جميلة تدل على الذوق وحب الجمال. ويمكن أن نستنتج أن الذين اتسع وقتهم لجمع هذه النفائس أناس متقدمون في العمر... ربما في الخمسين من أعمارهم.

ولم يزد فقد انفتح الباب، ودخل مسيو دامبرنال، تتبعه زوجته، وخلافًا لاستنتاج واطسون، كان كل منهما في مقتبل الشباب، تتسم هيئتهما بالأناقة والدقة، وغالبًا في تقديم الاعتذارات: إنها لمكرمة كبيرة منكما.. مثل هذا الإزعاج.. أننا سعيدان تقريبًا. لإزعاجنا إياكم مادام هذا الإزعاج قد تسبب في سرورنا.... ولكن الوقت من ذهب، ووقتك أنت بالذات يا مستر هولمز. ولهذا سأمضي إلى الغاية قدمًا. ما

رأيك في هذه القضية، وهل هناك أمل في إنجازها على ما يرام؟

– ولكن يجب أن أعرف تفاصيلها أولًا.

– ألم تعرفها؟

– كلا. وأرجوك أن تشرح لي الأمر بالتفصيل، ومن غير أي سهو.

– الأمر يتعلق بسرقة.

– ومتى وقعت؟

أجاب البارون: يوم السبت الماضي.

– منذ ستة أيام إذًا.. أنا مصغ إليك الآن.

– يجب أن أقول لك أولًا أنا وزوجتي، رغم أننا نعيش الحياة التي يتطلبها مركزنا الاجتماعي، فإننا لا نخرج إلا قليلًا.. تربية البنتين وبعض الحفلات والإشراف على تجميل قصرنا. هذه هي حياتنا. وكل أمسياتنا أو أكثرها تقريبًا نقضيها هنا، في هذه الغرفة، وهي الصالون الخاص بزوجتي، حيث جمعنا بعض التحف، وعليه ففي نحو الساعة الحادية عشرة من مساء يوم السبت الماضي أطفأت النور، ومضيت وزوجتي كما هي العادة إلى غرفتنا.

– وتقع؟

– بجوار هذه الغرفة... هذا الباب الذي تراه. وفي اليوم التالي، أي

يوم الأحد، استيقظت في ساعة مبكرة، ولما كانت زوجتي سوزان، لا تزال نائمة فقد جئت إلى هذه الغرفة، بقدر ما أمكنني من هدوء، حتى لا أوقظها. ودهشت إذ وجدت هذه النافذة مفتوحة، مع أننا تركناها بالأمس مغلقة.

– قد يكون أحد الخدم؟

– لا أحد يدخل هنا قبل أن ندق الجرس، ثم إنني أحرص دائمًا على أن أضع المزلاج خلف هذا الباب الثاني الذي يتصل بالردهة. وهذا يدل على أن النافذة فتحت إذن من الخارج. ولم ألبث أن وجدت الدليل على ذلك، فإن لوح الزجاج الثاني للمصراع الأيمن قد قطع بجوار التراس. والنافذة كما يمكنك أن ترى تؤدي إلى بقعة منبسطة تحيط بها شرفة حجرية. ونحن هنا في الطابق الأرضي، ونرى منه الحديقة التي تمتد خلف البيت، والباب الذي يفصلها عن حديقة مونسو. ومن المؤكد إذن أن الرجل أقبل من حديقة مونسو، واجتاز الباب بواسطة سلم، وصعد إلى الشرفة. وقد وجدنا، تحت الباب آثار السلم، ونفس الآثار موجودة تحت الشرفة. ثم إن الشرفة نفسها بها خدشان أحدثهما قائمًا السلم.

– وحديقة مونسو؟.... ألا تغلق ليلًا؟

– كلا. ولكن هناك بيت جاري بناؤه، في رقم ١٤، ومن السهل

الدخول منه.

فكر شرلوك هولمز بضع لحظات ثم قال: لنتكلم عن السرقة الآن. وقعت إذن في الغرفة التي نحن فيها الآن؟

– أجل. كان بين لوحة هذه العذراء التي يرجع عهدها إلى القرن الثامن عشر وهذا التمثال الفضي مصباح صغير أثري اختفى.

– وهل هذا كل شيء؟

– نعم.

– وهل لهذا المصباح قيمة ما؟

– إنه من تلك المصابيح النحاسية التي كانت تستخدم فيما سبق، له ساق وبه وعاء لوضع الزيت، وبذلك الوعاء بضعة ثقوب خاصة للفتائل.

– صفوة القول، ليس له أية قيمة تذكر.

– ليست له قيمة كبيرة في الواقع. ولكن كان به مخبأ اعتدنا أن نخفي فيه جوهرة نفيسة قديمة... تحفه ذهبية مرصعة بالياقوت والزمرد ولها قيمة كبيرة جدًّا.

– ولم هذه العادة؟

– الحق أنني لا أعرف ماذا أقول يا سيدي. لعل استخدامنا لهذا المخبأ كان مجرد لهو.

- ألم يكن أحد يعرف ذلك؟

- كلا.

اعترض هولمز: فيما عدا الذي سرق التحفة طبعًا، وإلا ما كان ليزعج نفسه ليسرق المصباح.

- طبعًا. ولكن كيف تمكن من معرفة ذلك المخبأ، ما دامت الصدفة وحدها هي التي كشفت لنا عن كيفية استخدامه.

ربما كشفته نفس الصدفة لأحد الخدم، أو لأحد المترددين على البيت... ولكن لنستمر... هل أبلغت البوليس؟

- بكل تأكيد. وقد قاموا بالتحقيق، كما قام مخبرو الصحف المهتمون بمثل هذا النوع من القضايا بالتحقيق هم الآخرون. ولكن يبدو، كما كتبت لك، أن القضية معقدة ولا يمكن حلها على الإطلاق.

نهض هولمز، وسار نحو النافذة. وفحصها، كما فحص البقعة المنبسطة والشرفة، واستخدم عدسته المكبرة في فحص الخدشين، وطلب من مستر دامبرفيل أن يمضي به إلى الحديقة.

وفي الخارج، جلس على مقعد من الخيزران، ونظر إلى سطح البيت وهو يفكر بعمق ثم اتجه فجأة نحو صندوقين من الخشب استخدما في تغطية آثار السلم. ورفعهما وجثا على ركبتيه. وفحص الجدران. وقام

ببعض القياسات، ونفس العملية بجوار البوابة.

وكان هذا كل شيء.

***

وعندما عاد إلى الصالون الصغير لزم هولمز الصمت بضع دقائق ثم قال: منذ أن بدأت قصتك يا سيدي البارون دهشت من بساطة العملية، فوضع سلم، وقطع لوح من الزجاج واختيار شيء بالذات وسرقته ثم المضي بكل بساطة، إن الأمور لا تجري بمثل هذه السهولة.

– والمعنى؟

– المعنى أن سرقة المصباح قد تمت تحت إشراف أرسين لوبين هتف البارون مشدوهًا: أرسين لوبين؟

– ولكنها تمت بعيدًا عنه، ومن غير أن يدخل هذا البيت. لعل أحد الخدم هبط من غرفته مستخدمًا ماسورة رأيتها في الحديقة.

– ولكن علام تستند في قولك هذا؟

ما كان أرسين لوبين ليخرج من هذه الغرفة صفر اليدين.

– صفر اليدين؟ ... والمصباح؟

– لو أنه أخذ المصباح لأخذ هذا التمثال المرصع بالماس، أو هذا العقد من الحجر الكريم، فلم يكن أمامه إلا أن يمد يديه. وإذا لم يكن

قد فعل ذلك فذلك لأنه لم يستطع.

– والآثار التي وجدناها؟

– إن هي إلا خدعة حتى لا نفطن إلى الحقيقة.

– والخدشان فوق الشرفة؟

– خدعة هي أخرى، أحدثهما ورق الصنفرة، وإليك بعض ذرات الصنفرة، وجدتها فوق الأرض.

– والآثار التي تخلفت عن قائمًا السلم.

– خدعة هي أيضًا، فبفحص الثقبين في أسفل البقعة المنبسطة، والثقبين الآخرين بجوار البوابة نجدهما متشابهين، ولكنهما غير متساوين، فالمسافة بين الثقبين الأولين ٢٣ سنتيمترًا، والأخرى، بين الثقبين الآخرين ٢٨ سنتيمترًا، وهذا دليل على أنهما أحدثا بواسطة قطعة مستديرة من الخشب.

– إن أفضل برهان على ما تقول هو العثور على هذه النقطة الخشبية.

قال هولمز: ها هي. إنني وجدتها في الحديقة تحت أحد أحواض الزهور.

***

لم يسع البارون إلا الاعتراف ببراهين هولمز. فإن الإنجليزي لم

يأت إلى البيت إلا منذ أربعين دقيقة، ومع ذلك فقد قوض كل الأدلة والحقائق الظاهرة، وبرزت حقائق الظاهرة، وبرزت حقائق أخرى مبنية على أسس أخرى سليمة، وهي استنتاجات شرلوك هولمز. وقالت البارونة:

– إن الاتهام الذي توجهه إلى خدمنا خطير يا سيدي. فجميعهم من الخدم القدامى المخلصين، ولا يمكن لأحد منهم أن يفكر في خيانتنا.

– إذا لم يكن بينهم من يخونكم فبماذا تفسرين هذا الخطاب الذي جاءني في نفس اليوم الذي كتبتم إلي فيه.

وبسط للبارونة الخطاب الذي أرسله إليه أرسين لوبين فقالت مشدوهة: أرسين لوبين. وكيف عرف؟

– ألم تتكلما عن خطابكما هذا أمام أحد؟

قال البارون: أبدًا. إنما هي فكرة خطرت لنا معًا في نفس الوقت، ونحن على المائدة.

– أمام الخدم؟

– لم يكن هناك غير بنينا و.... ولكن لا .... كانت صوفي وهنرييت قد غادرتا المائدة، أليس كذلك يا سوزان؟

فكرت مدام دامبرفال لحظة ثم قالت في توكيد:

– هذا صحيح... لقد انضمتا إلى الآنسة....

سألها هولمز: الآنسة؟

– المربية... الآنسة أليس ديمون.

– ألا تتناول هذه الآنسة وجباتها معكم؟

– كلا، فهي تتناولها وحدها في غرفتها.

قال واطسون: ومن الذي ألقى بالخطاب المرسل لصديقي في صندوق البريد؟

أجاب البارون: خادمنا دومينيك، وهو في خدمتنا منذ عشرين سنة، وأي بحث في هذه الناحية لن تكون له نتيجة.

وإذا انتهى هولمز من تحقيقه المبدئي استأذن في الانصراف.

وبعد ساعة، رأى أثناء الطعام صوفي وهنرييت. ابنتا دامبرفيل، وهما بنتان جميلتان، وفي الثامنة والسادسة من عمريهما.

وتحدثوا قليلًا. ورد هولمز على مجاملات البارون وزوجته في شيء من التجهم، بحيث صمما على التزام الصمت. وقدمت القهوة واحتسى هولمز قهوته ونهض.

وفي هذه اللحظة دخل خادم ومعه نص رسالة برقية باسم هولمز، فأخذها وقرأها.

«أرسل إليك مجددًا عن إعجابي الشديد، فالنتائج التي حصلت عليها في هذا الوقت القصير مذهله. وقد أثارت دهشتي حقًّا».

أرسين لوبين

وبدرت من هولمز حركة تدل على الضيق، وعرض البرقية على البارون: لعلك تعتقد الآن يا سيدي أن لجدرانك عيونًا وآذانًا.

تمتم دامبرفال في ذهول: إنني لا أفهم شيئًا.

– ولا أنا. ولكن الذي أفهمه هو أن ما من حركة تقع هنا إلا ويراها هو كذلك. ولا كلمة إلا ويسمعها أيضًا.

***

نام واطسون في تلك الليلة لا يشغل باله شيء، شأن الرجل الذي قام بواجبه ولم يعد هناك ما شغله إلا الاستغراق في النوم.

ولهذا سرعان ما راح في النوم، ورأى أحلامًا سعيدة، كان يطارد فيها لوبين هو وحده. ومستعد لإلقاء القبض عليه. وأحس بشخص يتحسس فراشه فأمسك بمسدسه، وكان قد وضعه تحت الوسادة، وقال: مكانك يا لوبين... لا تتحرك وإلا أطلقت الرصاص.

– عجبًا... من أين واتتك هذه الشجاعة أيها الصديق.

– آه. أهذا أنت يا هولمز؟.. هل أنت بحجة إلى.....

– نعم. قم.

ومضى به إلى النافذة وقال: انظر... إلى الناحية من البوابة... ألا ترى شيئًا؟

– إنني لا أرى شيئًا؟

– بل ترى. هناك، بجدار البوابة، انظر. إنهما يتحركان كفى مضيعة للوقت.

وأسرعا يهبطان السلم، وهما يعتمدان على الدرابزين. وولجا غرفة تؤدي إلى الحديقة، ورأيا من خلال الألواح الزجاجية للباب أن الشبحين لا يزالان في نفس المكان.

وقال هولمز: هذا عجيب. يخيل لي أنني أسمع صوتًا في البيت.

– في البيت؟..... مستحيل... إن الجميع نيام.

– أنصت إذن.

وفي هذه اللحظة انطلق صفيرا خافت من ناحية البوابة، ورأيا ضوءًا خافتًا ينبعث من داخل البيت. وتمتم هولمز:

– لا ريب أن الزوجين هي اللذان أضاءا النور، فهذه غرفتهما وتقع فوق غرفتنا.

وانطلق صفير آخر، أشد خفوتًا من الأول. وقال هولمز في استياء:

– إنني لا أفهم شيئًا.

صفير ثالث، مرتفع بعض الشيء ومنغم شيئًا ما. واشتدت الجلبة وازدادت وضوحًا؟. وهمس هولمز:

– يخيل إلي أنها صادرة من البقعة المنبسطة أمام الشرفة.

وأطل برأسه من فتحة النافذة، ولكنه سرعان ما ارتد وهو يطلق سبة مختنقة. ونظر واطسون بدوره. كان هذا بالقرب منهما سلم مسندًا إلى الشرفة. وقال هولمز:

– هناك شخص في المخدع. وهذا ما سمعناه. أسرع. ولنرفع السلم.

ولكن في هذه اللحظة بالذات تسلل شخص من فوق وهبط إلى أسفل، ورفع السلم. وجرى الرجل الذي يحمله بكل سرعة نحو البوابة، في نفس المكان الذي ينتظره فيه شريكاه. واندفع هولمز وواطسون، ولحقا به بينما كان يضع السلم أمام الباب. وانطلقت من الناحية الأخرى رصاصتان. وصاح هولمز: هل أصبت.

أجابه واطسون: كلا.

وأمسك بالرجل وحاول أن يشل حركته. ولكن الرجل تحول إليه وأمسكه بإحدى يديه وأغمد بالأخرى خنجرًا في صدر واسطون. وندى عن هذا الأخير آهة، وترنح ووقع. وصاح هولمز:

– اللعنة... الويل لهم لو أنهم قتلوه.

ومدد واطسون فوق العشب واندفع نحو السلم.... ولكن بعد فوات الأوان. فقد تسلقه الرجل، وتلقاه زميلاه وهربوا بين الأشجار الضخمة وصاح هولمز: واطسون.. واطسون... الأمر ليس خطيرًا... مجرد جرح بسيط، أليس كذلك؟

وانفتحت أبواب البيت فجأة. وأقبل البارون دامبرفال أولًا، وتبعه الخدم، ومعهم الشموع. وقال البارون:

– ما الخبر؟ هل أصيب مستر واطسون؟

عاد هولمز يقول وهو يحاول أن يوهم نفسه:

– لا شيء... مجرد جرح بسيط.

ولكن الدم كان يسيل بغزارة. والوجه كان مصفيًا.

وتحقق الطبيب الذي أقبل بعد عشرين دقيقة: أن نصل الخنجر توقف على بعد أربع ملليمترات من القلب وقال:

– إنه محظوظ حقًّا. لا بد له من ملازمة الفراش ستة أسابيع، وشهرين نقاهة.

***

وإذا اطمأن هولمز تمام الاطمئنان عاد إلى البارون في المخدع. في

هذه المرة لم يخرج اللص صفر اليدين. وإنما تجرأ واستولى على التمثال الصغير المرصع بالماس، وعلى عقد الياقوت، وعلى كل ما استطاع أن يحشو به جيوبه.

وكانت النافذة لا تزال مفتوحة، وقطع لوح الزجاج، وأثبت التحقيق الذي تم في الصباح الباكر أن السلم الذي استخدم، أتى به اللص من البيت الجاري بنائه. وقال مسيو دامبرفيل في شيء من السخرية: صفوة القول، هذه السرقة تكرار دقيق لسرقة المصباح.

– هذا صحيح، إذا تقبلنا التفسير الذي تبنته العدالة.

– أما زلت لا تتبناه أنت؟ ألم تقوض السرقة الثانية رأيك الأول.

– بل إنها تؤيده.

– هل هذا معقول. إن أمامك دليل لا يمكن وصفه بأن السطو الذي وقع الليلة قام بها شخص من الخارج، ولا تزال تصر مع ذلك على أن المصباح قد سرقه شخص من الداخل؟

– شخص يقيم في هذا البيت.

– كيف تفسر إذن؟....

– إنني لا أفسر شيئًا يا سيدي، وإنما أسجل حادثين لا علاقة بينهما في الظاهر، وأدرس كلا منهما على حدة، وأحاول أن أجد الصلة التي

تربط بينهما.

كان اقتناعه يبدو من العمق، وطريقة تصرفه مبنية على أسباب قوية بحيث إن البارون لم يسعه إلا أن يحني رأسه. وقال:

– ليكن. سنخطر البوليس إذن.

صاح الإنجليزي على الفور: كلا.... لا تفعل.... لا أريد الاتصال بهؤلاء السادة إلا إذا احتجت إليهم.

– وإطلاق الرصاص.

– لا أهمية له.

– وصديقك.

– إنما صديقي جريح فحسب، اطلب من الطبيب أن يلزم الصمت وأنا الكفيل بكل شيء من الناحية البوليس.

***

ومر يومان دون حادث يذكر، تابع هولمز فيهما بدقة شديدة، وكرامة جريمة ذلك الاعتداء الجريء الذي وقع تحت عينيه ومن غير أن يستطيع له دفعًا. وراح يفتش دون ملل أو تعب البيت والحديقة، ويستجوب الخدم. وتوقف قليلًا في المطبخ وفي الإسطبل. ورغم أنه لم يهتد إلى شيء ينير له الطريق فإنه لم يشعر بأي يأس أو إحباط. وراح

يحدث نفسه قائلًا: سوف أجد ما أريد... سوف أجده... إن الأمر هنا ليس كما كان في قضية الغادة الشقراء، فقد كنت أتخبط وأسير نحو غاية لا أعرفها. أما هذه المرة فأنا على أرض المعركة بالذات. والعدو ليس أرسين لوبين الذي لا أستطيع لمسه أو رؤيته وإنما هي معركة مع الشريك الذي يقيم ويعيش في هذا البيت، فأقل أثر سوف يقودني إليه.

وكان الأثر الذي يتكلم عنه، والذي مكنه من إماطة اللثام عن لغز المصباح الغامض بتلك العبقرية، ذلك الأثر ساقته إليه الصدفة وحدها.

***

في أصيل اليوم الثالث، دخل غرفة تقع فوق المخدع، تتلقى فيها الطفلتان دروسهما، ووجد هنريت، صغرى البنتين، تبحث عن مقص. وقالت تخاطب هولمز:

– إنني أقص أنا الأخرى أوراقًا كتلك التي تلقيتها أنت منذ أيام.

– منذ أيام؟

– نعم. إنك تلقيت أثناء العشاء ورقة عليها كلمات... أعني برقية.... حسنًا. إنني أصنع مثلها أنا الأخرى.

وخرجت. وما كانت هذه الكلمات لتعني شيئًا أكثر من أفكار تافهة لطفلة. وحتى هولمز نفسه أصغى إليها وهو شارد الذهن. ولكنه

راح يجري خلف الطفلة فجأة وقد أثارته عبارتها الأخيرة. ولحق بها في أعلى السلم وقال لها: إذن فأنت أيضًا تلصقين كلمات على الورق.

أجابت هنرييت وهي فخورة جدًّا:

– أجل.. إنني ألصق كلمات بعد أن أقصها.

– ومن الذي علمك هذه اللعبة الصغيرة؟

– الآنسة.. مربيتي... رأيتها تفعل ذلك... فهي تقطع كلمات من الجرائد وتلصقها.

– وماذا تفعل بها؟

– تصنع منها برقيات ورسائل تبعث بها.

عاد شرلوك هولمز إلى غرفة الدراسة وقد أثارته كلمات الطفلة، وحاول أن يستنتج منها الاستنتاجات الحتمية.

جرائد... كان هناك حزمة فوق الموقد، فبسطها أمامه، ورأى فعلا بعض الكلمات وبعض العبارات ناقصة، اقتطعت بعناية فائقة. ولكن كان يكفيه أن يقرأ الكلمات السابقة أو التالية لكي يتحقق من أن تلك الكلمات قد اقتطعتها هنرييت بالذات بالمقص. ولكن قد يكون هناك، بين الجرائد، جريدة اقتطعت الآنسة بالذات بعض كلماتها. ولكن كيف يتأكد؟

وراح شرلوك يقلب صفحات الكتب المدرسية المكدسة فوق

المنضدة في غير تفكير، ثم الكتب الأخرى المرصوصة فوق رفوف أحد الدواليب. وأفلتت من بين شفتيه فجأة صيحة تدل على الفرح، فقد عثر تحت بعض الكتب والكراسات القديمة على أحد كتب الحروف الأبجدية المصورة. وبدا له في إحدى صفحات ذلك الكتاب فراغ. وكانت الصفحة تحتوي على أسماء أيام الأسبوع. وكانت الأيام كلها موجودة فيما عدا يوم السبت، فقد اقتطع. وكانت سرقة المصباح قد وقعت يوم السبت.

أحس شرلوك بذلك الانفعال الذي يحس به دائمًا وبكل وضوح عندما يصل إلى عقدة محيرة. لم يكن ذلك الانفعال يخدعه أبدًا. وراح يقلب صفحات الكتاب. وكانت تنتظره مفاجأة في صفحة أخرى.

فقد كانت الصفحة تضم الحروف الإنجليزية مطبوعة بالطريقة الاستهلالية، ويتبعها سطر سجلت به الأرقام. وكانت تسعة من تلك الأرقام والحروف ناقصة فسجلها في مذكرته بالترتيب، وكان هذا بعضها.

ج.ن.ك.و.١ , ١. ب. يي. ٧٣٢.

وتتم: عجبًا... هذه الحروف والأرقام لا معنى لها تقريبًا.

ولكن هل يمكن بتغيير وضعها الوصول إلى نتيجة. وراح يحاول. وبذل جهدًا كبيرًا حتى توصل إلى وضع الحروف والأرقام بالترتيب

الذي بدا له معقولًا. وكانت النتيجة كالآتي.

أجبني أيكو ٧٣٢.

وبهذه النتيجة التي توصل إليها وبكلمة السبت الناقصة، أدرك أن الموعد المحدد هو يوم السبت ولكن ما معنى ٧٣٢... لا ريب أنه رقم صندوق بريد.

وكانت هنرييت قد عادت فسألته: إنها لعبة ممتعة، أليس كذلك؟

أجابها: نعم. ولكن أليس معك أوراق أخـرى.... أو كلمات مقطوعة أستطيع أن ألصقها.

– أوراق كلا.. ثم إن الآنسة لن يسرها ذلك، فقد سبق ونهرتني.

– لماذا؟

– لأنني أعطيتك أشياء... وقالت إنه لا يجب أن نذكر شيء عن الأشخاص الذين نحبهم.

– أنت على حق تمامًا.

بدا أن هنريت قد راق لها هذا القول إلى حد أنها أخرجت من حقيبة صغيرة من القماش مشبوكة في ثوبها بضعة أشياء تافهة: ثلاثة أزرار، وقطعتان من السكر وأخيرًا قصاصة صغيرة من الورق وقالت:

– حسنًا. إنني أعطيك هذا على كل حال.

كان مدونًا على الورقة رقم مركبة. وسألها:

– من أين أتيت بهذه الورقة؟.

– إنها وقعت من كيس نقودها.

– متى؟

– يوم الأحد، في الكنيسة، بينما كانت تخرج بعض النقود لصندوق النذور.

– حسنًا. والآن لا تقولي للآنسة أنك رأيتني حتى لا تنهرك ثانية.

***

وذهب هولمز إلى البارون رأسًا واستجوبه عن الآنسة، فهز كتفيه وقال: أليس ديمون؟... هل تظن... هذا مستحيل.

– منذ متي وهي تعمل في خدمتكم؟

– منذ سنة فقط. ولكنني لا أعرف شخصًا أكثر منها هدوءًا. ثم إنني أوليها كل ثقتي.

– وكيف حدث أنني لم أرها بعد؟

– إنها تغيبت يومين. وما أن عادت اليوم حتى أسرعت لكي ترعى صديقك فإن لها صفات الممرضة... رقيقة، وخدومة... ويبدو أن مستر واطسون مسرور بها.

قال هولمز، ولم يكن قد اهتم بالسؤال عن صديقه: آه.

وفكر لحظة ثم سأل: وهل خرجت صباح يوم الأحد؟

ودعى البارون زوجته وألقى عليها السؤال فأجابت:

- خرجت الآنسة كعادتها لكي تمضى إلى الكنيسة، في الساعة الحادية عشرة مع البنتين.

- وقبل ذلك؟

- قبل ذلك، كلا. ولكنني كنت منزعجة بسبب السرقة. ومع ذلك فإنني أتذكر أنها طلبت في اليوم السابق السماح لها بالخروج يوم الأحد صباحًا لرؤية ابنة عم لها كانت تمر باريس. ولكنني لا أظنك تشتبه فيها.

- طبعًا لا... ومع ذلك فإنني أود أن أراها.

وصعد إلى غرفة واطسون. كان هناك امرأة ترتدي زي الممرضات ثوبًا من القماش الرمادي، منحنية فوق المريض، وتساعده على الشراب. وعندما تحولت إليه عرف فيها هولمز الفتاة التي التقت به أمام محطة الشمال.

***

لم يدر بينهما أي كلام. وابتسمت أليس ديمون في هدوء بعينيها الصافيتين الرزينتين، دون أن يبدو عليها أي انزعاج. وأراد الإنجليزي

أن يتكلم، ولكنه لم ينطق إلا ببضع كلمات لا معنى لها ثم سكت. وعندئذ عادت إلى عملها، وراحت تتحرك في هدوء تحت بصر هولمز المشدوه، وحركت بعض القتاني، وفكت ولفت بعض الضمادات، ونظرت إليه بابتسامتها الصافية من جديد.

دار على عقبيه وهبط. ورأى في الفناء سيارة البارون فركبها، وأمر السائق أن يذهب به إلى شركة المركبات التي رأى عنوانها في الورقة التي أعطته الطفلة إياها. ولم يكن السائق دوبريه، الذي كان يسوق السيارة رقم ٨٢٧٩ في صباح يوم الأحد موجودًا، فأعاد السيارة وانتظر حتى أقبل السائق.

وقال دوبريه أنه أقل فعلًا، من حديقة مونسو، امرأة شابة ترتدي ثيابًا سوداء، وتضع على وجهها نقابًا سميكًا وكانت تبدو شديدة الاضطراب.

– وهل كانت تحمل صرة؟

– نعم صرة طويلة شيئًا ما.

– وأين ذهبت بها؟

– إلى شارع تيرن، على ناصية ميدان سان فردينان. بقيت هناك عشر دقائق ثم عادت إلى حديقة مونسو.

– هل تعرف البيت الذي مضت إليه؟

– طبعًا. أتريد أن أمضي بك إليه.

– نعم. ولكن امض بي أولًا إلى رقم ٣٦ برصيف أورفيفر.

وكان من حسن حظه أن وجد المفتش جانيمار في إدارة الأمن فقال له: هل هناك ما يشغلك يا مسيو جانيمار.

– إذا كان الأمر خاصًّا بلوبين فإن هناك ما يشغلني.

– الأمر خاص بلوبين فعلًا.

– لن أتحرك إذن.

– كيف هذا؟ هل نتخلى...

– إنني أتخلى عن المستحيل. لقد تعبت من هذا النضال غير المتكافئ الذي لا يصيبني منه إلا الفشل. سترميني بالجبن، وبكل ما تريد، ولكنني لا أحفل... إن لوبين أقوى منا وليس علينا إلا أن نحني رؤوسنا.

– أما أنا فلن أحني رأسي.

– سوف يرغمك على إحنائها كما أرغم الكثير من غيرك.

– حسنًا. هذا أمر سوف يمتعك كثيرًا.

قال جانيمار في سذاجة هل هذا صحيح. وما دمت لن تتلق نصيبك من الصفعات فهلم بنا.

واستقل المركبة. وتوقف السائق بناء على أمرهما قبيل البيت، في

الناحية الأخرى من الشارع. أمام مقهى صغير جلسا في شرفتها، وطلب هولمز من الجرسون أن يأتيه بورقة وقلم وسطر بضع كلمات ثم استدعى الجرسون وقال له: أرجو أن تسلم هذه الورقة لبواب البيت المواجه.

وأسرع إليهما البواب. وبعد أن كشف له جانيمار عن هويته كمفتش بوليس، سأله هولمز إذا كانت قد أقبلت امرأة شابة ترتدي ثوبًا أسود، صباح يوم الأحد، فأجاب: نعم. جاءت وصعدت إلى الطابق الثاني.

– وهل تراها كثيرًا.

– كلا. ولكنني رأيتها أكثر من مرة منذ بضعة أيام... كل يوم تقريبًا منذ أسبوعين.

– وبعد يوم الأحد؟

– جاءت مرة واحدة، وقد أقبلت اليوم.

– كيف هذا؟.... هل أقبلت اليوم؟

– نعم. وهي هنا منذ عشر دقائق. والعربة التي أتت بها تنتظر في ميدان سان فردنيان كالعادة.

– ومن الساكن المقيم في الطابق الثاني؟

– يقيم به ساكنان... الآنسة لانجيه، ورجل استأجر غرفتين مفروشتين منذ شهر باسم مسيو برسيون.

– لماذا تقول باسم برسيون؟

– ذلك أنه خطر لي أنه اسم مستعار. وزوجتي تقوم بخدمته، وليس بين قمصانه قميصان بنفس الحروف الأولية من هذا الاسم.

– وكيف يعيش؟

– أوه. إنه يقضي أوقاته خارج البيت تقريبًا. ويحدث أن لا يعود إلى البيت ثلاثة أيام متوالية.

– وهل عاد إلى البيت مساء يوم السبت.

– مساء يوم السبت؟ آه، نعم. جاء يوم السبت، ولم يخرج بعد ذلك.

– وأي نوع من الرجال هو؟

– الواقع أنني لا أدري ماذا أقول... فهو متغير.... أحيانًا طويل القامة، وأحيانًا قصيرها. وأحيانًا بدينًا وأحيانًا نحيفًا... تارة أسمر، وأخرى أشقر.. حتى ليخيل إلي في كل مرة أنني لا أعرفه.

تبادل جانيمار وهولمز النظر. وتمتم مفتش البوليس.

– إنه هو. إنه هو تمامًا.

وأحس المفتش العجوز بشيء من البلبلة، وتوترت قبضتاه في انفعال، ورغم أن هولمز كان أكثر منه هدوءًا فقد أحس بانقباض في صدره. وقال البواب فجأة: آه... ها هي المرأة الشابة.

وظهرت الآنسة على عتبة الباب فعلًا، وعبرت الميدان.

– وها هو مسيو بريسون.

– مسيو بريسون... ولكن أيهما.

– ولكنه غير مهتم بالفتاة، فهي تعود إلى المركبة وحدها.

– آه.. إنني لم أراهما معًا أبدًا.

أسرع الرجلان بالنهوض. وعرفا على ضوء القوانين هيئة لوبين وكان يبتعد في الناحية الأخرى من الميدان، وقال جانيمار:

– من تفضل أن تتعقب.

– هو طبعًا، فهو الصيد الأهم.

– سأتعقب أنا الفتاة إذن.

ولم يكن هولمز يريد أن يكشف شيئًا عن القضية لجانيمار، فأسرع يقول: كلا... كلا... إنني أعرف أين أجد الفتاة فلا تتركني.

***

راحا يتعقبان لوبين وهما يحتميان بالمارة وبالأكشاك. وكانت مطاردة سهلة لأن لوبين لم يكن يلتفت حوله، ويمشي مسرعًا وهو يعرج بساقه اليمن عرجًا خفيفًا يكاد لا يلحظ. وقال جانيمار:

– إنه يتظاهر بالعرج.. آه. لو وقعت في الطريق على رجلين أو ثلاثة

من رجال الشرطة لأطبقنا عليه، فإني أخشى أن تفقد أثره.

ولكن لم يظهر أي أحد من رجـال الشرطة. وإذ بلغا بوابة الاستحكامات الفرنسية لم يعد هناك أي أمل في لقاء أي واحد منهم. وقال هولمز: لنفترق الآن.... فقد أصبح المكان مكشوفًا.

وكانا قد بلغا شارع فيكتور هوجو. فمشى كل منهما على رصيف، وراحا يتقدمان محتميين بالأشجار، وظل على هذه الحال نحو عشرين دقيقة، إلى أن انعطف لوبين يسارًا وراح يمشي بمحاذاة نهر السين. وهناك رأيا لوبين يهبط إلى حافة النهر، ويقف بضع دقائق دون أن يتمكنا من تمييز حركاته، ثم عاد أدراجه وصعد إلى الشاطئ فالتصقا بأحد أعمدة النور. ومر لوبين بجوارهما، ولم تكن الصرة معه.

وما أن ابتعد لوبين حتى برز رجل من ظل أحد البيوت، وتسلل بين الأشجار. وقال هولمز في صوت خافت: بدو لي أنه يتعقبه هو الآخر.

وبدأت المطاردة من جديد. ولكن في شيء من التعقيد بسبب ذلك الرجل. وعاد لوبين من نفس الطريق إلى بيت ميدان سان فردينان.

واقترب جانيمار من البواب وهو يوشك أن يغلق الباب وقال له:

- إنك رأيته، أليس كذلك؟

- نعم. وقد صعد السلم، وأغلق باب مسكنه بالمزلاج.

– ألا يوجد معه أحد؟

– لا أحد، ولا خادم، وهو لا يتناول طعامه هنا أبدًا.

– وهل هناك سلم للخدم؟

– كلا.

وعندئذ انثنى جانيمار إلى هولمز وقال له:

– إن أبسط شيء هو أن أنتظر أنا بجوار باب لوبين بينما تمضي أنت إلى معاون البوليس بشارع ديجور. سأعطيك رسالة له:

اعترض هولمز قائلًا: وإذا هرب أثناء ذلك.

– ولكني سألبث بجوار الباب.

– واحد ضد واحد... سيكون الصراع غير متكافئ.

– ليس في استطاعتي اقتحام مسكنه مع ذلك، فلا حق لي في ذلك، خصوصًا في الليل.

هز هولمز كتفيه وقال: عندما تلقي القبض على لوبين فلن يلومك أحد عن ظروف القبض عليه. ثم إن الأمر لن يتجاوز دق الجرس.

وسنرى ما سوف يقع بعد ذلك.

وصعدا. وكان أمامهما، على البسطة، باب إلى اليسار، ودق جانيمار الجرس. ولم يرد عليه أحد. فدق مرة أخرى. وإذا لم يتلق ردًّا كذلك،

قال هولمز: هلم بنا ندخل.

ومع ذلك فقد بقيا مكانهما لا يتحركان، مترددين. فقد اتفقا من الإقدام على العمل. وبدا لهما فجأة أن أرسين لوبين قريب منهما، خلف باب هش يمكن تحطيمه بقبضة يد واحدة. وكان كل منهما يعرف لوبين وألاعيبه الشيطانية، بحيث لا يمكن أن يسمح لنفسه بالوقوع في الفخ بمثل هذه البساطة.

وسرت الرعشة في بدن كل منهما، فقد تناهى إليهما، من الجانب الآخر للباب، صوتًا خافتًا قطع حبل الصمت، وتأكدا أنه واقف خلف الباب ينصت. ونظر جانيمار إلى هولمز بركن عينه. كأنه يسأله الرأي، ثم هوى بقبضته على الباب فسمعا صوت أقدام في الداخل لا يحاول صاحبها العدو، ودق جانيمار على الباب مرة أخرى ولكن هولمز انقض عليه بكتفه في حزم وعنف. واندفع كل منهما إلى الداخل. ولكنهما توقفا على الفور، فقد دوت في الغرفة المجاورة رصاصة تبعتها أخرى، ثم صوت جسد يقع.

وعندما دخلا رأيا الرجل ممددًا ووجهه إلى رخام المدفأة. وتشنج جسده ولم يلبث أن أوقع المسدس من يده. فانحنى جانيمار وأدار وجهه كان الدم يغطيه كله. وهتف هولمز يقول: يا إلهي!... إنه ليس هو.

– وكيف عرفت ذلك.. إنك لم تفحصه بعد.

زمجر الإنجليزي قائلًا: وهل تظن أن أرسين لوبين بالرجل الذي ينتحر.

– ومع ذلك فقد خيل إلينا أنه هو، وهو بالخارج.

– خيل إلينا لأننا أردنا ذلك، فإن ذلك الرجل يسيطر على أفكارنا.

– إذا فهو أحد شركائه.

– إن شركاء أرسين لوبين لا ينتحرون.

– من هو إذن؟

وفتشا الجثة. وجد هولمز في أحد جيوبها محفظة فارغة. ووجد جانيمار في جيب آخر بضع قطع من النقود. ولم يجدا على ثيابه أي أثر أو دليل.

ولم يعثرا في حقائبه على شيء غير الثياب. وعلى بعض الجرائد فوق المدفأة، بسطها جانيمار، وكانت كلها تتكلم عن سرقة المصباح.

وانصرفا بعد ساعة وهما لا يعرفان شيئًا عن الرجل الذي أرغمه تدخلهما على الانتحار.

من هو؟..... ولماذا انتحر؟.... وما علاقته بالمصباح المسروق. ومن الرجل الذي تعقبه في الطريق؟ أسئلة كلها معقدة وغامضة.

أوى هولمز إلى فراشه وهو عكر المزاج، وعندما استيقظ تلقى برقية هذا نصها: «يتشرف أرسين لوبين بإبلاغكم بموته المأساوي في شخص السيد بريسون، ويرجوكم حضور جنازته التي ستشيع على نفقة الدولة يوم الخميس ٢٥ يونية».

٢

قال هولمز لصديقه واطسون وهو يلوح له ببرقية ارسين لوبين:

– أنا ما يضايقني في هذه المغامرة هو أحساسي الدائم بأن عين هذا الشيطان تلازمنى، فلا تفلت منه أقل فكرة من أفكارى، وأشعر بأنني أقوم بدور الممثل طبقاً لسيناريو دقيق. هل تفهم يا واطسون؟

ومن المؤكد أن واطسون كان قمينا بأن يفهم لو أنه لم يستغرق في نوم عميق لرجل حرارته ما بين الاربعين والواحدة والأربعين درجة ولكن سواء سمع أو لم يسمع فلم يبد هولمز أي اهتمام وراح يقول:

– يجب أن أستعين بكل جهدى ومواهبى لكى لا أشعر بأى أحباط. ولحسن الحظ هذه الدعابات الصغيرة كأنها وخزات دبوس تعيد إلى نشاطى وأقول لنفسى: فليلهو كما يشاء فانه سوف يقع في النهاية. فهو ببرقيته الأولى لى، وبحديث هنرييت معى كشف لى عن سر اتصاله

بأليس ديمون. وأنا وجانيمار متواعدان على اللقاء على شاطئ السين، في نفس المكان الذى ألقى فيه بريسون بالصرة التي كانت معه. وسنعرف عندئذ كل شيء عن الدور الذى قام به في هذه المغامرة. أما الباقي فهو بينى وبين أليس ديمون، وهى ليست بالند الذي يمكنه أن يتصدى لى.

دخلت الآنسة في هذه اللحظة، وإذ رأت هولمز يلوح بيديه قالت له في رفق: سوف أرجوك يا مسيو هولمز إذا أيقظت مريضى، فليس من الخير أن تضايقه، وأوامر الطبيب صارمة وتقتضى الهدوء التام.

أحرجها دون أن ينطق وقد أدهشه، كما أدهشه في اليوم الأول، هدوءها العجيب. وقالت:

– لماذا تحرجنى هكذا يا مسيو هولمز؟ لا شيء؟ بل هناك سبب، فإنه يبدو عليك دائماً أنك تخفى شيئاً في صدرك، فما هو. أجبنى، أرجوك.

ألقت عليه كل هذه الأسئلة بمنتهى الصراحة، وبعينين بريئتين، وفم مبتسم، ويديها المعقودين فوق صدرها المنحنى إلى الأمام قليل، وببراءة بحيث إن الانجليزى أحس بالغضب، فاقترب منها وقال في صوت خافت: انتحر مسيو بريسون مساء أمس.

كررت قوله دون أن تفهم كما يبدو: انتحر بريسون مساء أمس؟

لم يظهر على وجهها أي توتر، ولا أي شيء يدل على أنها تبذل أي

جهد لكي تكذب، فعاد يقول في غضب:

– كنت تعلمين إذن، وإلا لبدت عليك الدهشة على الأقل آه..... إنك أقوى مما كنت أظن. ولكن لماذا تتكتمين.

وأمسك بكتاب الصور الذي كان قد ألقاه فوق المنضدة المجاورة وفتحه عند الصفحة المقطعة وقال:

– هل يمكنك أن تذكرى لي كيف أرتب هذه الحروف التي تنقص هنا لكى أعرف المضمون الصحيح الذي أرسلته إلى بريسون قبل أن يسرق المصباح بأربعة أيام؟

رددت كلماته في بطء، كما لو كانت تستخلص منها معناها، فقال في إصرار: نعم. هذه هي الحروف المستخدمة، على هذه الورقة، ماذا قلت لبرسيون؟

– الحروف المستخدمة؟..... ماذا قلت لبرسيون؟....

وفجأة انفجرت ضاحكة وقالت:

– آه. فهمت، فأنا شريكة في السرقة. هناك مسيو بريسون الذي سرق المصباح وانتحر، وأنا صديقة ذلك السيد. آه... إن هذا لمضحك!

– من الذي زرته إذن مساء أمس في الطابق الثاني من البيت الذي

يقع في شارع دى تيرن.

– من؟... إننى ذهبت لزيارة الآنسة لانجيه، صانعة القبعات. أتكون هي ومسيو بريسون شخص واحد.

ورغم كل ذلك ظل الشك قائماً لدى هولمز، فإن المرء يستطيع أن يتظاهر بالخوف أو بالمرح أو بالقلق أو بكل المشاعر، ولكنه لا يستطيع التظاهر بعدم الاكتراث أو بالضحكة السعيدة اللامبالية. ومع ذلك فقد عاد يقول: كلمة أخيرة. لماذا التقيت بي في تلك الليلة، في محطة الشمال؟ ولماذا توسلت إلى أن أسرع بالعودة دون أن أهتم بهذه السرقة.

أجابته وهي لا تزال تضحك بطريقة طبيعية:

– آه... أنت رجل فضولى جداً يا مسيو هولمز. وعقاباً لك لن تعرف شيئاً. وفوق ذلك سوف ترعى المريض ريثما أمضى إلى الصيدلية لإحضار أدوية أمر بها الطبيب.

وخرجت، وتركت هولمز وحده مع المريض فتمتم:

– إنها مكرت بى. لم أستطع الحصول منها على شيء. بيد أنى كشفت نفسى فقد عرفت الآن قصة الكتاب، وأراهن أن لوبين سيعرف ذلك قبل ساعة. بل الآن فوراً... وما الأدوية التي أمر بها الطبيب إلا خدعة.

وأسرع بالخروج إلى الشارع، ورأى الآنسة تدخل صيدلية.

وخرجت بعد عشر دقائق ومعها بعض القنانى وزجاجة ملفوفة في ورق أبيض. ولكن بينما كانت تعود اعترضها رجل كان يتبعها، وقبعته في يده في احترام باد كما لو سيطلب منها صدقة. وتوقفت الفتاة لحظة وأعطته الصدقة ثم عاودت السير. وقال الإنجليزي لنفسه: إنها كلمته.

ولكنه لم يكن على يقين من ذلك فقد غير خطته وترك الفتاة وانطلق خلف المتسول المزيف.

ووصل إلى ميدان سان فردينان. وراح الرجل يحوم حول بيت بريسون، ويرفع عينه من وقت لآخر إلى الطابق الثاني، ويراقب الناس الذين يدخلون البيت.

وبعد ساعة، استقل الرجل الترام المنطلق إلى نوبي، وصعد هولمز بدوره وجلس بجوار رجل تحجب وجهه الصفحات المفتوحة لجريدة. وهبطت الصحيفة عند الاستكامات، ورءى هولمز عندئذ أنه جانيمار. وهمس له هذا الأخير في أذنه وهو يشير إلى الرجل:

– هذا هو رجل الأمس الذي كان يتبع برسون، وراح يحوم حول البيت منذ ساعة.

سأله هولمز: هل من جديد عن بريسون؟

جاءته رسالة صباح اليوم.

– صباح اليوم. إذن فقد ألقيت في صندوق البريد أمس قبل أن يعرف الراسل نبأ موت بريسون.

– بالذات. وهي بين يدى قاضى التحقيق. ولكننى أتذكر مضمونها.

(إنه لا يقبل أي اتفاق... يريد كل شيء.... الشيء الأول، وكذلك أشياء المرة الثانية، وإلا فسوف يتصرف.

وأردف جانيمار: وهى بغير توقيع. ولن تفيدنا في شيء كما ترى.

– إننى لا أتفق معك في هذا الرأي يا مسيو جانيمار، فإن كلمات تلك الرسالة تبدو لى على العكس ذات أهمية كبرى.

– ولماذا بالله؟

أجاب هولمز في هدوء: لأن معناها واضح بالنسبة لى.

وتوقف الترام في شارع شاتون، نهاية الخط، وهبط الرجل منه وسار في هدوء. وتعقبه هولمز وجانيمار. واقترب هذا الأخير منه تقريباً، بحيث أحس هولمز بالخوف وقال: إذا التفت فسوف ينكشف أمرنا.

– إنه لن يلتفت.

– وما أدراك؟

– إنه شريك لأرسين لوبين. وبما أن شريكاً للوبين يمشى هكذا ويداه

في جيبه فهذا يثبت أنه يعرف أن هناك من يتبعه، وأنه لا يخشى شيئاً.

– ومع ذلك فنحن قريبين منه جداً.

– وذلك حتى يفلت من بين أيدينا قبل دقيقة، فإنه واثق جداً من نفسه.

– ولكن... إنك تثير أعصابى. انظر هناك، عند باب هذا المقهى.... شرطيان من راكبى الدراجات. إذا قررت اللجوء إليهما فإننى أتساءل كيف يمكنه الإفلات منا.

– يبدو أن الرجل لا يبالى بهذا الاحتمال، فهو نفسه يمضى إليهما.

هتف جانيمار: يا للشيطان!... إنه جرىء.

والواقع أن الرجل تقدم نحو الشرطيين عندما هما بركوب دراجتيهما، وقال لهما شيئاً، ثم وثب فجأة فوق دراجة ثالثة، مسندة إلى جدار المقهى، وأسرع بالابتعاد مع الشرطيين

وقهقه الإنجليزى وقال: ما رأيك الآن؟ ألم أتوقع ذلك. لقد هرب، ومع من؟... مع شرطيين... آه... إن لوبين هذا جرىء حقاً، ولا يخاف شيئاً حتى أنه ليرشو رجال الشرطة، ويستعين بهم.

صاج جانيمار في استياء: إذن، ماذا نفعل؟ من السهل أن تضحك.

– لا تغضب. سوف ننتقم. ولكن لابد لنا الآن من نجدة.

– إن فولنفان ينتظرنى في آخر شارع فولنفاى.

– امض إليه إذن وعد إلى معه.

وابتعد جانيمار. وتتبع هولمز آثار الدراجات، وحملته بعد قليل إلى نفس الشاطئ، وكان عبارة عن لسان صغير من الأرض يمتد نحو نهر السين، حيث رأى قارباً قديماً على الشاطئ يحبس فيه صياد.

وقف بريسون بالأمس في ذلك المكان وألقى بالصرة في الماء. وهبط هولمز وقد رأى أن من السهل أن يجد الصرة، هذا ما لم يكن الرجال الثلاثة قد سبقوه....

وقال يحدث نفسه: كلا، كلا. إنهم لم يجدوا متسعاً من الوقت، فلم تمض أكثر من ربع ساعة. ومع ذلك، فلماذا مروا من هنا. واقترب من الصياد وقال له: ألم تر ثلاثة رجال بدراجاتهم؟

وضع الصياد سنارته تحت إبطه، وأخرج مفكرة من جيبه كتب شيئاً على ورقة منها ثم انتزعها وناولها لهولمز فقرأ فيها ما يلى: ج ن ك و ١١ ب ب ٧٣٢.

وكانت الشمس ترسل أشعتها الحامية على النهر. وعاد الصياد فأمسك بصنارته وألقى بها في النهر، تحمى رأسه من أشعة الشمس قبعة عريضة الحوافى، وقد ألقى بجاكتته بجواره، ومضت دقيقة، ساد

فيها صمت ثقيل، وقال هولمز يحدث نفسه: إنه هو.

وأخرج مسدسه من جيبه، وأحس برغبة ضارية في أن يطلق الرصاص وأن ينتهى من كل شيء. ولكن مثل هذا العمل كان ضد طبيعته، وقال يحدث نفسه:

- فلينهض وليدافع عن نفسه... وإلا فالويل له... لحظة أخرى وأطلق النار.

ولكنه سمع وقع خطوات خلفه فاستدار، ورأى جانيمار يأتي، وبرفقته بعض رجال الشرطة، فغير رأيه ووثب إلى القارب فانقطع الحبل الذي يربطه إلى الشاطئ نتيجة لقوة الوثبة. ووقع هولمز فوق الرجل وأمسك بخناقه. وتدحرج الاثنان في قاع القارب. وصاح لوبين وهو يقاومه: وبعد؟... ما الذى ترمى إليه؟... ماذا يحدث لو تغلب أحدنا على الآخر؟ لن نتقدم على الإطلاق، فلن تعرف ماذا تفعل بى، ولن أعرف ماذا أفعل بك. سنبقى في قاع المركب كغبيين.

وانزلق المجدافان في الماء، وانساق القارب مع التيار. وارتفعت الصيحات بطول الشاطئ. واستطرد لوبين:

- ما هذه الحماقة؟ هل فقدت رشدك؟ وفي سنك هذه.ما أقبح هذا! وأفلح في التخلص، فاغتاظ هولمز، ودس يده في جيبه في عزم

وإصرار، ولكنه لم يجد المسدس، فقد سرقة لوبين منه. وجثا عندئذ على ركبته وحاول الإمساك بأحد المجدافين، ولكنه لم يفلح. فقال لوبين: أرأيت؟.... إن القدر نفسه مع لوبين... والتيار يحالفنى. ذلك أن القارب راح يبتعد عن الشاطئ فعلاً.

وصوب بعضهم مسدسه فخفض رأسه وانطلقت رصاصة واستقرت في الماء على كثب من القارب. وقال لوبين:

– هذا عمل غير سليم يا جانيمار، فإن القانون لا يخولك إطلاق النار إلا في حالة الدفاع عن النفس.

وأخرج مسدساً، وأطلقه دون أن يصوب. ورفع المفتش يده إلى قبعته، فإذا بالرصاصة قد ثقبتها. وقال لوبين:

– ما رأيك يا جانيمار؟ هذا المسدس أنتجته شركة خبيرة في صناعة المسدسات، إنه مسدس صديقى العزيز الأستاذ شرلوك هولمز.

وقذف بالمسدس بكل قوته عند قدمى جانيمار، ثم تحول إلى هولمز وقال له: إنك في مكان الصدارة يا أستاذ. ولا أظنك ترضى أن تتخلى عنه بكل ذهب العالم. ذلك أنك في الصف الأول من المقاعد، ولكن أولاً وقبل كل شيء التمهيد، وبعد ذلك سوف نقفز مرة واحدة إلى الفصل الخامس، وهوإما إلقاء القبض على أرسين لوبين أو هروبه.

وعليه فعندى سؤال أرجو أن ترد عليه يا أستاذ بلا أو بنعم. ألا تريد أن تتخلى عن هذه القضية؟ ما زال هناك وقت وأستطيع إصلاح ما أفسدته أنت... أما إذا لم تقبل الآن فلن أستطيع. فهل توافق؟

- كلا.

انحنى لوبين عندئذ وانتزع لوحاً من قاع المركب. وقضى بضع ثوان في عمل لم يستطع الآخر أن يفهم طبيعته، ثم اعتدل لوبين وقال:

- أظن يا أستاذ أننا أتينا إلى هذا الشاطئ لنفس الغرض، وهو استعارة الصرة التي تخلص بريسون منها. وكنت قد تواعدت مع بعض الزملاء للقاء هنا، وأعترف أن أصدقائي عندما أخبرونى بقدومك لم أشعر بأية دهشة، وأجرؤ فأقول إننى كنت أعرف خطواتك، خطوة خطوة، والأمر بسيط فما من شيء يحدث في شارع موريللو حتى تأتينى مكالمة تليفونية أعرف منها كل شيء.

وكان الماء قد تسرب إلى القارب، من مكان اللوح المنزوع فقال:

- عجباً.... لا أدرى ماذا فعلت، فهل أنت خائف.

هز الإنجليزى كتفيه. وعاد لوبين يقول:

- ولعلك تفهم أننى في هذه الظروف، وأنا أعرف مقدماً، أنك تنشد النضال، بقدر ما أبذل أنا جهدى لتفاديه، كان يروق لى بالأحرى أن

أخوض معك معركة كل خيوطها في يدى. وأردت أن أتيح لمقابلتنا كل البريق الممكن حتى يعرف العالم أجمع هزيمتك فلا يلجأ إليك أحد بعد ذلك يا أستاذى العزيز، كما جاء إليك البارون دامبرفال والكونتس كروزون.

وأمسك مرة أخرى، واستخدم يديه وهى نصف مطبقتين، كما لو كانت نظارة ونظر إلى الشاطئ:

– آه. إنهم استقدموا زورقاً كبيراً... بارجة حربية حقاً. وها هم يجدفون بكل قوة، وسيصلون بعد خمس دقائق، وأكون أنا من الهالكين. إليك نصيحة يا مسيو هولمز... ماذا لو تنقض على وتقيدنى وتقدمنى إلى عدالة بلدى. هل يروق لك هذا البرنامج؟.... هذا ما لم نطرق معا بطبيعة الحال. ولا يبقى أمام كل منا عندئذ إلا أن يحرر وصيته، فما رأيك؟

والتقى بصراهما، وأدرك هولمز عندئذ معنى العمل الذى أقدم عليه لوبين، فقد ثقب قاع القارب.

وارتفع الماء حتى كعبى حذاءيهما، وغطى أقدامهما. ولكن لم يبد أي منهما حركة. وتجاوز عرقوبيهما. وأخرج الإنجليزى كيس الدخان من جيبه ولف لنفسه سيجارة وأشعلها.

– وأرجو يا أستاذى العزيز أن لا ترى إلا اعترافى المتواضع بعجزى

أمامك. وانحنائى أمامك إن هو إلا قبولاً للمعارك الوحيدة التي أتأكد فيها من أن النصر سيكون بجانبى. وهذا اعتراف منى بأن هولمز هو العدو الوحيد الذى أخشاه، وإننى أقر بقلقى وخوفى طالما لا يبتعد عن طريقى. هذا هو ما أردت قوله لك يا أستاذى العزيز، ما دام القدر قد شرفنى وأتاح لى فرصة الحديث معك. ولست نادماً إلا على شيء واحد وهو أن حديثنا هذا يدور ونحن نعرض أقدامنا لحمام من الماء... بل ماذا أقول... اعترض نصف جسمينا لحمام من الماء.

والواقع أن الماء كان قد بلغ سطح المقعد الذي يجلسان فوقه، وراح القارب يزداد غوصاً.

وظل هولمز على هدوئه والسيجارة بين شفتيه وهو ينظر إلى السماء متأملاً. لم يرض أن تصدر منه أية بادرة من الانزعاج أو الاضطراب أمام ذلك الرجل الذي تحيط به الأخطار من كل جانب، ويحاصره الناس ويطارده رهط من رجال الشرطة ويحتفظ رغم ذلك بكل هدوئه ومرحه.

آه. ولكن ماذا يحاول أي منهما أن يقول. وكيف نفعل كل منهما بمثل هذه التفاهات إنك يغرق بعض الناس كل يوم في النهر.... وهل يستحق ذلك كل هذا الاهتمام؟ كان أحدهما يثرثر والآخر يتأمل، وكل منهما يخفى، تحت نفس قناع اللامبالاة وعدم الاكتراث الصدمة الكبيرة

لكبريائهما. وقال لوبين:

– المهم أن نعرف هل سنغرق قبل أو بعد وصول أبطال العدالة، لأننا سوف نغرق لا محالة، وهذه هي الساعة الحاسمة لتحرير الوصية، وأنا أوصى بكل ثروتى لصديقى العزيز شرلوك هولمز... يا إلهى. إن الزورق يقترب بسرعة بحيث إننى إذا أفلت من الغرق فلن أنجو من ديوزى ورجاله على الضفة اليسرى ولا من جانيمار على الضفة اليمنى.

وانشق الماء في هذه اللحظة، ودار القارب حول نفسه. واضطر هولمز أن يتشبث بحلقة المجاديف، وقال لوبين:

– أرجوك يا أستاذ أن تخلع جاكتتك فسوف يكون من السهل عليك أن تسبح حتى الشاطئ عندئذ. لا تريد. سألبس أنا إذن جاكتتى.

قال هولمز عندئذ وقد خرج عن صمته:

– إنك تتكلم كثيراً يا مسيو لوبين. وقد قدمت لى دون أن تدرى المعلومات التي كنت أبحث عنها.

– كيف هذا؟ كنت تبحث عن معلومات ولم تقل لى ذلك.

– لست بحاجة إلى أحد. بعد ثلاث ساعات سأمضى إلى مسيو ومدام دامبرفال وأذكر لهما مفتاح السر. وهو....

ولم يفرغ من عبارته، فقد غرق القارب فجأة وجذبها معه، ولكنه لم يلبث أن طفا غير أنه كان مقلوباً. وارتفعت الصيحات على الشاطئ، ثم خيم صمت مقلق. وفجأة صيحات أخرى تدل على الدهشة فقد ظهر أحد الغارقين.

كان شرلوك هولمز. وألقوا إليه بحبل من الزورق. وبينما كانوا يرفعونه إلى سطحه قال صوت خلفه:

- مفتاح السر أيها الأستاذ العزيز.... من المؤكد أنك عرفته. بل إننى لأعجب كيف لم تعرفه قبل ذلك. ولكن... فيم سيخدمك ذلك؟.... إن في استخدامك له هزيمتك بالذات.

كان لوبين جالساً على ظهر القارب في هدوء تام. واستطرد يقول:

- افهمنى جيداً يا أستاذى العزيز. لن تستطيع شيئاً... لن تستطيع شيئا على الإطلاق. ستجد نفسك في موقف يرثى له.

صوب فولنفان مسدسه نحوه وقال: سلم نفسك يا لوبين.

- أنت رجل غير مهذب أيها الرقيب فولنفان... قاطعتنى في منتصف عبارة... كنت أقول...

أطلق فولنفان الرصاص، فترنح لوبين، وتشبث بحطام القارب لحظة، ثم اختفى.

كانت الساعة الثالثة عندما وقعت هذه الأحداث. وفى تمام الساعة السادسة دخل هولمز مخدع شارع موريللو، مرتدياً بنطلوناً قصيراً جداً وجاكيت ضيق جدا. استعارهما من صاحب حانة في نويى، وطلب مقابلة مسيو ومدام دابمرفال.

ووجداه، يتمشى جيئة وذهاباً. وقال عندما رآهما:

– هل الآنسة هنا؟

– نعم، في الحديقة، مع البنتين.

– حيث إن الحديث الذي سيدور بيننا يا سيدى البارون حاسم وخطير فإننى أرجو أن تكون الآنسة ديمون موجودة معنا.

– هل لابد...

– أرجو أن تتذرع بقليل من الصبر يا سيدي. إن الحقيقة ستظهر بكل وضوح من الوقائع التي سأذكرها أمامكم بكل دقة.

– ليكن. احضرى أليس ديمون يا سوذان.

نهضت مدام دامبرفال، وعادت على الفور ويرفقتها أليس ديمون. وكانت هذه الأخيرة شاحبة اللون تقريباً، على غير العادة. ووقفت بجوار المنضدة دون أن تسأل عن سبب استدعائها. وقال هولمز عندئذ:

– بعد أيام كثيرة من التحقيق يا سيدى، ورغم أن بعض الأحداث قد غيرت نظريتى في وقت ما، فإننى ما زلت أقول لكما إن المصباح قد سرقه شخص من البيت.

– ما اسمه يا سيدى.

– إننى أعرفه.

– والأدلة؟

– إن ما لدى من الأدلة تكفى لإدانته.

– ولكن لا يكفينى أن يدان... يجب أن يعيد إلينا...

– المصباح؟... والأشياء الأخرى... إنها معى يا سيدى.

بدت الدهشة على البارون وزوجته، في حين راح هولمز يذكر كيف عثر على كتاب الحروف الأبجدية ثم رحلة بريسون إلى الشاطئ، وثم انتحاره، وغرق القارب واختفاء لوبين، وعندما فرغ، قال البارون في صوت خافت: لا يبقى عليك الآن إلا أن تذكر لنا اسم الجاني، فمن هو؟

– هو الشخص الذى انتزع الحروف من هذا الكتاب، والذي اتصل بأرسين لوبين بهذه الطريقة.

– وكيف عرفت أن أرسين لوبين هو الذي اتصل بذلك الشخص؟

- عرفت ذلك من أرسين لوبين نفسه.

وبسط قصاصة مبتلة من الورق، هي التي كان لوبين قد أعطاها له وقال: لاحظ يا سيدى أن الحروف التي بها هي نفس الحروف المقتطعة من الكتاب. وبعد معالجتها استطعت أن أكون هاتين الكلمتين: أجب أكون، وقد زاد لوبين إليها بعض الحروف بحيث أصبحت العبارة أجبنى ايكو دى فرانس، وهذه الجريدة هي لسان حال أرسين لوبين، كما هو معروف. وقد مضيت إلى إدارتها وهناك اكتشفت قصة العلاقة بين أرسين لوبين.. وشريكته.

ووضع هولمز سبع جرائد مختلفة من جريدة ايكو دى فرانسى مفتوحة لهما على الصفحة الرابعة حيث تنتشر الإعلانات المبوية وأشار إلى سبعة سطور هذا نصها:

١- ارس. سيدة تطلب حمايتك ٥٤٠.

٢- ٥٤٠.... انتظر الإيضاحات.

٣- ١.ل. تحت رح...عدو... ضائعة.

٤- ٥٤٠ اكتبى العنوان... سأقوم بتحقيق.

٥- ا. ل. ١٨ شارع موريللو.

٦- ٥٤٠. الحديقة، الساعة الثالثة... زهور بنفسج.

٧- ٢٣٧ موافق السبت. سأكون صباح الأحد. الحديقة. صاح مستر دامبرفال: وهل تسمى كل هذا قصة مفصلة؟

- نعم، وبشيء قليل من الاهتمام سوف تشاركنى الرأي فبادئ ذي بدء، سيدة أشارت إلى نفسها برقم ٥٤٠؟؟؟؟ لوبين. ورد عليها لوبين وطلب منها أن توضح ... تحت سيطرة عدو، هو بريسون دون أي شك، وأنها ضائعة إذا لم يخف لمساعدتها. ولوبين حريص ولا يريد التورط مع امرأة غريبة فيطلب عنوانها ويقترح إجراء تحقيق. وتتردد السيدة أربعة أيام، ويمكنك أن تراجع التواريخ. وأخيراً وإذ تتعجلها الأحداث، وتحاصرها تهديدات بريسون تذكر له اسم شارع موريللو. وفي اليوم التالى يذكر لها أرسين لوبين أنه سيكون في حديثة مونسو في الساعة الثالثة، ويطلب من المرأة الغريبة أن تضع باقة من زهور البنفسج كوسيلة للتعارف. وبعد ذلك، انقطعت المراسلات ثمانية أيام، إذ لم تعد هناك حاجة لأرسين لوبين وللسيدة لكى يتراسلا عن طريق الجريدة لأنهما إما كانا يلتقيان وإما كانا يتراسلان مباشرة. ودبرت خطة، وإرضاء لمطالبات بريسون تقوم السيدة بسرقة المصباح ويبقى بعد ذلك تحديد اليوم. وقد دفع الحرص السيدة إلى أن تقوم بمراسلاتها

عن طريق كلمات مقتطعة وتلصقها، وتحدد يوم السبت وتضيف أجبنى ايكو ٢٣٧. ويرد لوبين بأنه موافق وبأنه سيكون في انتظارها في حديقة مونسو صباح الأحد. وتقع السرقة صباح يوم الأحد.

قال البارون: الواقع أن كل ما ذكرته يتطابق تماماً، والقصة هكذا قد اكتملت.

واستطرد هولمز يقول: تقع السرقة إذن، وتلتقى السيدة بلوبين وتخبره بما فعلت وتمضى بالمصباح إلى بريسون. وتقع الأمور عندئذ كما توقع لوبين فقد انخدعت العدالة بالنافذة المفتوحة وبالثقوب الأربعة على الأرض وبالخدشين على الشرفة واقتنعت بنظرية السرقة عن طريق السطو. واطمأنت السيدة.

قال البارون: إننى مقتنع بهذا التفسير المنطقى. ولكن السرقة الثانية.

– تسببت السرقة الأولى في السرقة الثانية. فقد ذكرت الجرائد كيف اختفى المصباح. وخطر للبعض إعادة تمثيلية السطو والاستيلاء على ما لم يسرق في المرة الأولى. وكانت سرقة حقيقية في تلك المرة غير مفتعلة.

– لوبين بالطبع.

– كلا. فلوبين لا يتصرف بمثل ذلك الغباء، ولا يطلق الرصاص على الناس مهما كان السبب.

– من إذن.

– بريسون دون أي شك. بدون علم السيدة التي هددها. بريسون هو الذى دخل هنا، وهو الذى طاردته وهو الذى أصاب صديقى واطسون المسكين.

– هل أنت واثق مما تقول؟

– كل الثقة. فقد كتب له أحد شركائه أمس، قبل انتحاره رسالة تثبت أنه وجدت مفاوضات بين هذا الشريك وبين لوبين لاسترداد جميع المسروقات، وطالب لوبين بكل شيء: الشيء الأول (أي المصباح) وكذلك الأشياء الأخرى التي سرقها في المرة الثانية. ثم إنه كان يراقب بريسون. وعندما مضى هذا الأخير إلى شاطئ النهر مساء أمس تعقبه أحد رجال لوبين في نفس الوقت الذى كنا نتعقبه فيه.

– وماذا فعل بريسون على شاطئ النهر؟

– علم أننى أتقدم في تحقيقى....

– وممن علم؟

– من نفس السيدة. وكانت تخشى أن يتسبب اكتشاف المصباح في اكتشاف مغامراتها. علم بريسون إذن فجمع في صرة واحدة كل، ما يمكن أن يورطه وألقاها في مكان يستطيع منه استعادتها بعد أن

يزول الخطر. وإذا رأى أثناء عودته أننى أطارده، أنا وجانيمار، ولما كان ضميره يثقله بسبب جرائم أخرى فقد فقد عقله وانتحر.

– ولكن ماذا كان في تلك الصرة.

– المصباح وتحفك الأخرى.

– هي ليست معك إذن؟

– بعد أن اختفى لوبين، انتهزت فرصة الحمام الإجبارى الذى أرغمنى عليه لكى أمضى إلى المكان الذى اختاره بريسون، ووجدت الصرة وبها الأشياء المسروقة، ملفوفة في قطعة من القماش المشمع. وها هي على هذه المنضدة.

ومن غير أن ينطق البارون بكلمة، قطع الدوبارة والقماش المبتل وأخرج منه المصباح، وأدار صامولة صغيرة في أسفلة وعالج الوعاء بيديه الاثنتين، وفكه وفتحه من ناحيتين متساوييتن، ووجد التحفة الذهبية المرصعة بالياقوت والزمرد.

كان في ذلك المشهد الطبيعى جداً في ظاهره والذي يبدو كمجرد عرض للحقائق شيء مثير ومأساوى، وهو الاتهام القاطع الذي وجهه هولمز في كل كلمة من كلماته إلى الآنسة، وكذلك صمت أليس ديمون العجيب.

فأثناء ذلك الحديث الطويل القاسى الذي تدعمه الأدلة لم يصدر

من الفتاة ما ينم على التمرد أو الخوف. ففيم كانت تفكر. ثم ماذا ستقول عندما سيتعين عليها أن ترد وأن تدافع عن نفسها وتحطم الحلقة الحديدية التي أحاطها بها هولمز بكل براعة.

ودقت تلك اللحظة، ومع ذلك فقد لاذت الفتاة بالصمت. وصاح مسيو دمبرفال: تكلمى.... تكلمى إذن.

ولكنها لم تنطق، فعاد يقول في إصرار:

– كلمة واحدة تبرءين بها نفسك... كلمة إنكار فأصدقك.

ولكنها لم تنطق بتلك الكلمة.

واجتاز البارون الغرفة بسرعة ثم أدار أدراجه. وعاد فاجتازها من جديد. وخاطب هولمز: كلا يا سيدى. لا يمكن أن أصدق. هناك جرائم أخرى، وهذه تتنافى مع كل ما أعرف وكل ما أرى منذ سنة.

وألقى يده على كتف الإنجليزى وأردف: ولكن، أنت نفسك يا سيدى... هل أنت واثق تماماً أنك غير مخطئ.

تردد هولمز كرجل هوجم فجأة ولم يسعفه الوقت للدفاع. ومع ذلك فقد الاسم وقال: إن الشخص الوحيد الذى أتهمه كان يعرف بحكم وضعه في هذا البيت أن هذه التحفة الفريدة موجودة في المصباح.

تمتم البارون: لا أريد أن أصدق.

– سلها بنفسك.

وكان ذلك في الواقع هو الشيء الوحيد الذى لم يحاوله للثقة العمياء التي توحيها إليه الفتاة. ومع ذلك فما كان بوسعه تجاهل الأمر الواضح. فاقترب منها وحدجها بعينيه وقال: أهى أنت يا آنسة؟ أأنت التي أخذت المصباح. أ أنت التي راسلت أرسين لوبين وافتعلت السرقة.

أجابت: نعم يا سيدى.

ولم تغض الطرف. ولم يبد على وجهها خجل أو ارتباك،

– هذا غير ممكن... ما كنت لأظنه أبداً.... هناك آخر شخص أشك فيه.... كيف فعلت ذلك أيتها التعسة؟

قالت: إننى فعلت كما قال مسيو هولمز. أتيت في مساء يوم السبت إلى هذا المخدع وأخذت المصباح، وفي الصباح؟ أعطيته لذلك الرجل.

صاح البارون: ولكن لا... إن ما تقولين غير مقبول.

غير مقبول.. ولماذا؟

– لأننى وجدت في الصباح باب هذا المخدع موصداً بالمزلاج.

اضطرم وجهها، وارتبكت، ونظرت إلى هولمز كما لو كانت تطلب

منه النصح. ودهش هولمز لارتباكها أكثر من دهشته لاعتراض البارون. أليس لديها ما ترد به.؟ هل اعترافها بما قدمه من تفسير سرقة المصباح يخفى أكذوبة تهدم الاستقصاءات التي قام بها. وعاد البارون يقول:

– كان هذا الباب مغلقاً. وأؤكد أننى وجدت المزلاج في موضعة كما تركته بالأمس، فلو أنك دخلت من هذا الباب كما تزعمين فقد كان لابد أن يفتحه لك أحد من الداخل، أي من مخدعنا أو من غرفتنا. ولم يكن هناك أحد في هاتين الغرفتين. لم يكن هناك أحد غيرى أنا زوجتى.

انحنى هولمز فجأة، ودفن وجهه بين يديه لكى يخفى احمراره، فإن شيئاً كما لو أنه ضوء عنيف صدمه وتركه مبهوراً، ضيق الصدر، فقد تكشف أمامه كل شيء، كمنظر انقشع عنه الظلام فجأة.

كانت أليس ديمون بريئة.

أليس ديمون بريئة. كان هذا أمرا مؤكداً، وكان فيه في نفس الوقت تفسيراً للضيق الذى أحس به في أول يوم اشتبه فيه في الفتاة. كان يعلم. ورأى أمام عينيه على الفور الدليل القاطع على براءتها.

ورفع رأسه، وبعد بضع لحظات حول عينيه، وبطريقة طبيعية، وبقدر ما استطاع نحو مدام دامبرفيل.

كانت شاحبة شحوب المرء عندما تواجهه أشد ساعات حياته

حرجاً، وكانت تحاول إخفاء يديها اللتين سرت فيهما الرعشة. وفكر هولمز (لحظة أخرى وتفضح نفسها).

وقف بينها وبين زوجها وبه رغبة ملحة في إبعاد الخطر المخيف الذي يهدد حياة ذلك الرجل وتلك المرأة، وذلك بسببه هو. وسرت الرعشة في كل كيانه، فإن نفس الحقيقة التي بهره ضؤوها أضاءت وجه البارون، وفهم بدوره كل شيء.

وفي محاولة يائسه وقفت أليس دايمون ضد الحقيقة فقالت:

– أنت على صواب يا سيدى، فقد أخطأت... والواقع أننى أدخل من هذا الباب وإنما مررت بالردهة ثم بالحديقة واستعنت بالسلم...

جهد يائس للإخلاص. ولكن لا طائل منه، فقد نطقت كلماتها بالذات بزيفها. وكان الصوت غير ثابت، ولم يعد للمخلوقة الرقيقة نفس العينين الصادقتين، فأطرقت برأسها وقد أحست بالهزيمة.

كان الصمت فظيعاً. وانتظرت مدام دامبرفال وقد اصفر لونها وتوترت في وقفتها من فرط القلق والهلع. وبدأ البارون كأنه لا يزال يتقادم، كما لو أنه لا يريد أن يصدق انهيار سعادته. وتمتم:

– تكلمى.... برىء لنفسك.

قالت في صوت خافت جداً ووجهها شديد التوتر:

– ليس لدى ما أقول يا صديقى المسكين.

– إذن... والآنسة؟

– إن الآنسة أنقذتنى... بإخلاصها... وحبها، وباتهامها لنفسها.

– أنقذتك؟ ..... ومن أي شيء؟

– من ذلك الوغد.

– بريسون؟

– نعم. فقد كان يهددنى أنا... عرفته عند صديقة لى... وكنت من الجنون بحيث استمعت إليه... أوه، لا شيء يستحق غفواتك... ومع ذلك فقد كتبت إليه رسالتين، ستراهما... فقد اشتريتهما منه... وأنت تعرف كيف... أوه، ترفق بى... فشد ما عانيت وبكيت.

– أنت... أنت يا سوزان؟

ورفع قبضتيه المضمومتين عليها يهم بأن يضربها، وعلى استعداد لأن يقتلها، ولكن زراعيه تهدليا إلى جانبيه وتمتم من جديد:

– أنت يا سوزان؟... أنت؟.... أهذا ممكن؟

وبعبارات قصيرة مبثورة روت المغامرة المبتذلة المحزنة، وصحوتها المذعورة أمام فظاعة الرجل، وتبكيت ضميرها، وخوفها، وتكلمت

أيضاً عن إخلاص أليس ووفائها، فإن الفتاة خمنت يأس سيدتها فانتزعت منها اعترافها وكتبت للوبين، ودبرت قصة تلك السرقة لإنقاذها من برائن بريسون.

وعاد مسيو دامبرفال يقول وقد تقوس ظهره:

– أنت يا سوزان؟.... كيف أمكنك...

في مساء نفس اليوم كانت السفينة (مدينة لندن، التي تنتقل ما بين كاليه ودوفر تبحر البحر الساكن في بطء. كانت الليلة معتمة وهادئة، والسحب الخفيفة تحلق فوق السفينة وتفصلها عن المكان اللانهائي حيث ينتشر نور القمر والنجوم.

ومضى أغلب الركاب إلى قمراتهم والصالونات، ومع ذلك فقد بقى بضعهم يتمشون على سطح الباخرة في حين تمدد البعض الآخر فوق المقاعد المستطيلة، تحت أغطية سميكة. وكان يرى هنا وهناك ومضات السيجارة، ويتناهى إلى الأسماع الأصوات التي لا تريد أن ترتفع وتقطع الصمت العميق المهيب.

وراح أحد الركاب يتمشى في خطوات منتظمة، بطول حاجز السفينة، وتوقف أمام فتاة مستلقاة فوق مقعد. ونظر إليها فاحصاً. وإذ رآها تتحرك قليلاً قال: كنت أظنك نائمة يا آنسة أليس.

– كلا. كلا يا مسيو هولمز... لا أريد أن أنام... كنت أفكر.

– فيم؟ أ أكون متطفل إذا سألتك ذلك؟

– كنت أفكر في مدام دابرفال. لا ريب أنها حزينة، فقد ضاعت حياتها.

أسرع يقول: كلا. فإن غلطتها ليست من تلك التي لا تغتفر سينسى مسيو دامبرفال هذه الغلطة، بل إنه كان ينظر إليها بأقل قسوة ونحن نغادر القصر.

– ربما... ولكن النسيان سيطول... وهى تتألم.

– إنك تحبينها كثيراً؟

– نعم. وذلك هو الذى منحنى القوة لكى أبتسم وأنا أرتجف من الخوف، ولكى أنظر إليك مواجهة في حين أننى كنت أتمنى الهرب.

– ويحزنك أن تفارقيها؟

– يحزننى جداً، فليس لى أهل ولا أصدقاء. لم يكن لى غيرها. قال الإنجليزى وقد بلبله هذا الحزن:

– سيكون لك أصدقاء. وأعدك بذلك... فإن لى علاقات... ونفوذ كبير... وأؤكد لك أنك لن تندمى على وظيفتك.

– ربما. ولكن لن تكون مدام دامبرفال هناك.

ولم يتبادلا أي حديث آخر. ودار شرلوك هولمز مرتين أو ثلاث مرات بالباخرة، ثم عاد وجلس بجوار زميلته في السفر.

وأخذ الضباب ينقشع، وبدا كأن السحب تنفصل عن السماء ولمعت النجوم. وأخرج هولمز غليونه من جيب معطفه وحشاه، ولم يفلح في إشعال عيدان الثقاب الأربعة التي حكها الواحد بعد الآخر. ولما لم يكن معه غيرها فقد نهض، وقال لرجل يجلس على بعد خطوات:

– هل أجد معك عوداً من الثقاب.

أخرج الرجل عوداً من علبة معه وحكه. وظهرت شعلة على الفور رأى لوبين على ضوئها أرسين لوبين.

ولولا تلك الحركة البسيطة، وهى حركة ارتداد تكاد لا تلحظ لافترض لوبين أن هولمز كان يعلم بوجوده على الباخرة. ولكن والحق يقال بقى الإنجليزى سيد نفسه. ومد يده بحركة طبيعية جدا لغريمة وهو يقول: أراك دائماً في صحة جيدة يا مسيو لوبين.

هتف لوبين وقد أعجبه هدوء الإنجليزى: مرحى!

– مرحى... ولماذا؟

– ولماذا؟... أنك ترانى أظهر أمامك كما لو كنت شبحاً، بعد أن شاهدتنى أغرق في نهر السين، ومع ذلك فببرود، بل بمعجزة من

البرود الإنجليزى المعروف لم تصدر منك بادرة ذهول، ولو كلمة دهشة. ولعمرى أعود فأقول مرحى... هذا عجيب.

– ليس هذا بعجيب، فقد رأيت من طريقة سقوطك من فوق القارب أنك تسقط طواعية وأن رصاصة الشرطى لم تصبك.

– وانصرفت أنت قبل أن تعرف ما حدث لى.

– ما حدث لك. كنت أعرف أنك، فقد كان هناك خمسمائة شخص يتحكمون في مساحة نحو كيلو متر من ضفتى النهر، وكان اعتقالك أكيداً إذا نجوت من الموث.

– ومع ذلك فها أنذا أمامك!

– مسيو لوبين، هناك شخصان في الدنيا لا يدهشنى فيهما شيء، أنا أولهما ثم أنت.

وهكذا تصالح الرجلان.

فإذا كان هولمز لم يفلح في إجراءاته ضد أرسين لوبين، وإذا كان لوبين قد بقى بالنسبة له العدو الأكبر الذى لابد له أن يتخلى نهائياً عن اعتقاله، وإذا كان يحتفظ دائماً بالتفوق أثناء النضال، فإن الإنجليزى، قد وجد بإصراره العجيب المصباح، كما سبق أن عثر على الماسة الزرقاء. ولعل النتيجة هذه المرة أقل بريقاً، ولا سيما من وجهة نظر

الجمهور لأن هولمز اضطر أن يلزم الصمت عن الظروف التي أعاد بها المصباح وأن يعلن أنه لا يعرف اسم الجانى. ولكن من رجل لرجل، ومن لوبين لهولمز، ومن المخبر السرى للص لم يكن هناك بحث لا غالب ولا مغلوب، فإن كلا منهما يمكن أن يزعم أنه على قدم المساواة للآخر من ناحية الفوز.

وتبادلا الحديث إذن كغريمين لطيفين ألقيا بأسلحتهما، وقدر كل منهما الآخر حق قدره.

وتلبية لرغبة هولمز، روى لوبين كيفية هربه فقال:

– ذلك إذا كان أن نسمى ذلك هرباً، فقد كان الأمر بسيطاً جداً. كان أصدقائى مرابطين في المكان، لأننا كنا قد تواعدنا على اللقاء لانتشال المصباح. وبعد أن بقيت نصف ساعة تحت القارب المقلوب، انتهزت لحظة كان فولفان ورجاله يبحثون فيها عن جثتى بطول الضفتين وصعدت فوق حطام القارب، والتقطنى زملائى وهم يمرون بى بزورقهم البخارى، وانطلقوا تحت العيون المذهولة لخمسائة رجل، ومهم جانيمار وفولنفان.

صاح هولمز: عظيم جداً... والآن، ألديك عمل في إنجلترا؟.....

– نعم. صفية بعض الحسابات. ولكننى نسيت. ومسيو دامبرفال؟

– إنه يعرف كل شيء.

– آه يا أستاذى العزيز! ماذا قلت لك؟ إن الضرر لا يمكن إصلاحه الآن. ألم يكن من الأفضل أن تتركنى أتصرف وفق إرادتى؟.... لو أنك انتظرت يوماً أو يومين لا ستراددت المصباح والتحف من بريسون ولأعدتها إلي دامبرفال، ولباشر هذان الزوجات الباسلان حياتهما في هدوء ولكن بدلاً من ذلك...

ضحك هولمز وقال: بدلاً من ذلك عقدت الأمور وبذرت الشقاق فى أسرة كنت تكلأها بحمايتك.

– يا إلهى!.... نعم. كنت أحسبها. وهل من الضرورى أن أسرق دائماً وأخدع؟

– إذن فأنت تفعل الخير أيضاً.

– عندما أجد الوقت. ثم إن هذا يستهويك. وأرى أن من الغريب حقاً أننى قمت في المغامرة التي شغلتنا بدور ملاك الخير الذى يسعف وينقذ في حين أنك أنت قمت بدور ملاك الشر الذي يجلب اليأس والدموع.

احتج الإنجليزى قائلاً: الدموع!....

– طبعاً. فإن أسرة دامبرفال قد تقوضت وأليس ديمون تبكى...

– لم يكن بمقدورها أن تبقى، فقد كان لابد أن يكتشف جانيمار الحقيقة، ومنها يصل إلى مدام دامبرفال.

– إننى أشاركك الرأي تماماً يا أستاذ... ولكن من المخطئ.

مر أمامها رجلان. وقال هولمز يخاطب لوبين بلهجة تغيرت قليلاً:

– هل تعرف من هذان السيدان؟

– أظن أن أحدهما قبطان الباخرة؟

– والآخر؟

– لا أعرفه.

– إنه مستر اوستن جيليت، ووظيفته في إنجلترا تعادى وظيفة مسيو ديدوا، مدير الأمن فى فرنسا.

– آه. يا لها من فرصة. هل تتكرم وتقدمنى إليه. إن مسيو ديدوا من أعز أصدقائى، ويسرنى أن أقول نفس القول عن مستر أوستن جيليت.

وظهر الرجلان من جديد فقال هولمز وهو ينهض:

– وإذا عملت بكلمتك؟

وكان قد أمسك بمعصم أرسين لوبين وراح يضغط عليه بقوة.

– لماذا تضغط بقوة هكذا يا أستاذ؟.. إننى على استعداد لأن أتبعك.

والواقع أنه استسلم له دون مقاومة. وكان الرجلان قد ابتعدا، فأسرع هولمز خلفهما وقد انغرزت أصابعه في لحم لوبين بالذات. وقال في صوت أصم، في نوع من العجالة المحمومة لكى يفرغ من الأمر بأقصى سرعة: هيا.... أسرع.

ولكنه لم يلبث أن توقف فجأة، فتبعتهما أليس ديمون، وقال:

– ماذا تفعلين يا آنسة؟.... ليس هناك داع... لا تأتى معنا.

وكان لوبين هو الذى رد فقال:

– أرجوك أن تلاحظ يا أستاذ أن الآنسة لا تتبعنا طواعية، فإننى أضغط على معصمها بنفس القوة التي تضغط بها أنت على معصمى.

– ولماذا؟

– كيف هذا؟ ولكننى أتمسك جداً بأن أقدمها هي الأخرى، فإن دورها في قضية المصباح أكثر أهمية من دورى، فبصفتها شريكة أرسين لوبين، وشريكة بريسون، يجب أن تروى هي الأخرى قصة البارونة دامبرفال، وهى قصة ستهم العدالة... وبهذا تكون قد ذهبت بتدخلك في صنع الخير إلى أقصى الحدود... يا لك من رجل كريم يا هولمز!

أطلق الإنجليزى معصم أسيره... وأطلق لوبين معصم الفتاة.

ووقفوا جامدين بضع لحظات، وكل من الرجلين أمام الآخر، ثم عاد

هولمز إلى مقعده وجلس، وعاد لوبين والفتاة إلى مكانيهما وقال لوبين:

– أرأيت يا أستاذ. مهما صنعنا فلن نكون إذاً في نفس الجانب، فسوف تقف أنت في ناحية من الهوة وأنا في الناحية الأخرى. يمكن أن يحيى كل منا الآخر وأن يصافح كل منا الآخر ولكن ستكون الهوة بيننا دائماً. ستكون أنت البوليس السرى شرلوك هولمز دائماً وسأكون أنا اللص أرسين لوبين دائماً، وسينساق شرلوك هولمز تقريباً مع غريزته كبوليس سرى ويحاول اللص ويحاول أن يعتقله إذا أمكن، وسيحاول أرسين لوبين أن يتجنبه ويهزأ به إذا استطاع. وقد استطاع هذه المرة. آه. آه.

وانفجر ضاحكاً، ضحكة ساخرة وقاسية وبغيضة.

ثم انحنى نحو الفتاة في هدوء ووقار وقال: ثقى يا آنسة إننى ما كنت لأغدر بك حتى لو بلغت إلى نهاية المطاف، فإن أرسين لوبين لا يغدر بأحد ولا يخون أحداً أبداً، وخاصة أولئك الذين يحبهم ويعجب بهم واسمحى لى أن أقول لك إننى أحببتك وأعجبتنى شجاعتك وقوتك.

وأخرج من محفظته بطاقة قطعها نصفين وناول نصفاً منها إلى الفتاة وقال في انفعال واحترام:

– إذا لم يفلح مستر هولمز في مساعيه فاذهبى إلى الليدى سترونجبولو، وستجدين عنوانها بسهولة، وقدمى لها نصف البطاقة وقولى لها هاتين

الكلمتين (ذكرى أمينة) فتخلص لك الليدى سترونجبولو كما لو أنك أختها.

قالت الفتاة: شكراً... سأمضى إلى هذه السيدة غداً.

هتف لوبين في ارتياح رجل أدى واجبه:

- والآن يا أستاذى العزيز، أتمنى لك ليلة طيبة، فما زالت أمامنا ساعة قبل الوصول إلى البر. وسأنتهز هذه الفرصة...

وتمدد بطول جسده، وعقد يديه خلف ظهره.

كانت السماء مفتوحة أمام القمر. وتألق نوره الرائع حول النجوم وفوق سطح البحر، وراح يطفو فوق صفحة الماء، وفى اللانهائية، حيث تذوب آخر السحب.

وانفصل الشاطئ من الأفق المظلم، وصعد الركاب إلى سطح الباخرة، ومر مستر أوست جبليت وبرفقته رجلان عرف هولمز أنهما ضابطان من البوليس الإنجليزي.

وكان لوبين راقداً فوق مقعده